آيات الله بين المستجيبين ، والمجادلين
في سورة الرعد

تمهيد : –

نوهت سورة الرعد في مطلعها إلى أن أكثر الناس لا يؤمنون ، رغم أن **آيات الله –كثيرة– دالة على قدرته وتحيط بهم** ، فاستشهدت بالعديد من آياته الكونية الكافية بذاتها لإقامة الحجج على الخلق أجمعين ، ومنها (رفع السماوات بغير عمد – جريان الشمس والقمر – مد الأرض – الجبال رواسي – الأنهار والثمرات – تعاقب الليل والنهار – تجاور الأراضي – تعدد واختلاف الأصناف التي من أصل واحد وفي بيئة وظروف واحدة) فتؤكد هذه الآيات أن الناس ليس لهم حجة في عدم الإيمان بالله إزاء وضوحها وبيانها ، وذلك هو المحور الرئيسي الذي تدور حوله السورة ، فهي تعالج قضية الإيمان الواجب على البشر فهمًا واعتقادًا ، والتمسك بأحكامها والعمل على نشرها .

وقد **التفت الخطاب إلى النبي ﷺ لتصدق عجبه من الكافرين** الذين لا يؤمنون بالبعث وتوعدهم بسوء المصير في الآخرة ، وهم بسخريتهم المعهودة يستعجلون العذاب في الدنيا قبل الآخرة ، فلم يعتبروا بقصص من سبقهم ، ولكنها مغفرة الله التي سبقت غضبه ، أن يُمْهلهم ولا يُهْملهم .

ولكنهم –وكالعادة– **لا ينتهون عن طلب المعجزات المادية والمقترحة**، وهي تحيط بهم من كل جهة ، بدء مما غاب عنهم من علم الأجنة وما يشاهدونه من آية تخليقها وولادتها ، فكل شيء يجري بحفظ الله ، كما يحثهم القرآن على **التفكر في علوم الطبيعة البيولوجية** المختلفة لكل كائن ، فمنهم من ينشط بالليل ومنهم من ينشط بالنهار ، كل ذلك والإنسان في غفلة عن إدراك ما حوله من مخاطر ، **وغافل عن حفظ الله له** بالملائكة التي يرسلها لتتعاقب بحفظه ليل ونهار، فالآيات في الكون المشاهد شيء ، ونظيرها في العالم الغيب أجل وأكثر مهابة .

وقد أرسل الله **آيتين كونيتين عظيمتين** للتدليل على قدرته سبحانه ، أحدهما مرئية والأخرى صوتية ، وكلاهما وصلتا الغاية في منتهى الوضوح في الإبصار أو الإسماع ، **فالأولى آية "البرق"** الذي يراه كل ذي عينين ، **والثانية "الرعد"** الذي يسمعه كل ذي أذنين ، تلكما الآيتان من آيات الله تعالى يخوف الله بهما عباده ليحملهم قسرا على التفكر في قدرته وعظمته ، وينتهون عن مجادلة النبي ﷺ في طلب الآيات والمعجزات المادية ، وكلاهما آيتيان كافيتان ، وكلاهما مخلوقتان من مخلوقات الله ، **فطريق الحق جلي وواضح ، وطريق الباطل سراب** .

ومن يتأمل **الكون يجده يسير في قوانين ربانية ثابتة ، مأسور بها** ، فهو خاضع للقوة الربانية القاهرة ، لكن الذين يرتكنون لغير الله تعالى يعمون أنفسهم عن إدراك ذلك ، فيسيرون في الظلمات ويتركون النور ، فترى **العقول الضالة تنبهر بقوة البشر بل ويضاهون بها قوة الله** ، متجاهلين أن قوة البشر هي من خلق الله ، فالناس إزاء قدرة الله وآياته

العظيمة على صنفان ، **أعمى وبصير** ، أي متخبط في الظلمات أو سائر في النور ، أي مستجيب لما يراه من آيات منتفع بها وآخر غير مستجيب ولا منتفع ، تمر عليه الآيات دون أن يمسك أو يسترشد بشيء منها .

إذن العبرة بالقلب الذي يستقبل الآيات ، فإذا كان القلب لا يزال منكر لها ، وقد أبصرتها الأعين وسمعتها الآذان ، فهو قلب غافل لاه ، مرت عليه الآيات دون مشاهدتها بعين البصيرة ، ولكنها تظل آيات وإن لو كذب بها المكذبون .

يقول الأستاذ سيد قطب (لا يمكن أن تكون هناك بنية إنسانية سوية ، غير مطموسة ولا معطلة ولا مشوهة؛ ثم يعرض عليها هذا الحق ، ويبين لها بالصورة التي بينها المنهج القرآني؛ ثم لا تستجيب لهذا الحق بالإيمان والإسلام .

فالفطرة الإنسانية بطبيعتها مصطلحة على هذا الحق في أعماقها؛ فإذا صُدت عنه فإنما يصدها صاحبها لآفة تجعله يختار لنفسه غير هذا الهدى؛ وتجعله بذلك مستحقاً للضلال ، ومستحقاً للعذاب ، كما قال الله سبحانه في السورة الأخرى؛ (**سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق ، وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها** ، وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلاً ، وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلا ، ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين) وفي هذه السورة ترد أمثال هذه الآيات الدالة على طبيعة الكفر فتقرر أنه عمىً وانطماس بصيرة ، وأن **الهدى دلالة على سلامة الكينونة البشرية من هذا العمى** ، ودلالة على سلامة القوى المدركة فيها؛ وأن في صفحة هذا الكون من الدلائل ما يبين عن الحق لمن يتفكرون ولمن يعقلون)[1].

وقد بينت السورة **صفات الطائفة التي تستجيب لآيات الله** والتي تتضمن صفة (الوفاء – إيصال الحقوق – الخشية – الصبر – النية – الصلاة – الانفاق – الدفع بالحسنة) وبينت جزاءهم في الآخرة ، وفي الدنيا ، كما عددت **صفات الطائفة التي لا تستجيب لآيات الله** بأنها (خائنة – مضيعة – مفسدة) وبينت جزاءهم الأخروي والدنيوي ، وهاتان الطائفتان ترزقان – في الدنيا– من رزق الله ، ليكتمل للابتلاء مقوماته ، لكن الطائفة الكافرة لا تكتفي بالآيات ، بينما الطائفة المؤمنة قلبها مطمئن بذكر الله .

ثم شرعت في **وصف حال الأمة** التي يدعوها النبي ﷺ للإسلام ، وكيف أنها كانت في جاهلية مقيتة ، جاهلة عن معرفة ربها ، حدت بهم هذه الجاهلية إلى طلب استبدال المعجزة الروحية بأخرى مادية ، فبدلا من أن يتفكروا في معجزة القرآن الخالدة إلى يوم القيامة يقترحون استبدالها بمعجزة مادية تبطل سنة الابتلاء في الدنيا لتصير الحياة الدنيا هي الجنة التي يتمنون الخلود فيها .

ورغم إكثارهم للجدل لكن لا يزال أمل المؤمنين قائم فيهم جميعا ، ولا يزالون هم يجادلون حتى تهددهم الله بالعذاب ، ولا تزال دعوة الأنبياء محل تهكم وسخرية من هؤلاء القوم ، ولا يزالون يفترون على الله بالشركاء ، ويمكرون ويصدون عن سبيل الله .

---

[1]) في ظلال القرآن ج4 ص 382

وقد بين الله عاقبة الفريقين ، **فهؤلاء عاقبتهم النار وأولاء عاقبتهم الجنة** ، فالذين عاقبتهم الجنة يفرحون بالمعجزة الروحية ، وغيرهم ممن هم أهل النار ينكرون بعضه ، أي يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض

ومن مظاهر هذه العاقبة – في الدنيا – بيان أن **القرآن جاء ليحكم العرب ومن حولهم – أي جزيرة العرب – باعتبارهم نواة هذه الدعوة المباركة** ، وتلك **معجزة أخرى** مادية تتحقق ولا يرونها ، فأهل القرآن يقع عليهم عبء حمل هذه الرسالة للناس كافة ، ودورهم في هذه الرسالة يقتصر على **البلاغ** كما هو دور الرسول ﷺ الذي أمره ربه بأن يتلو القرآن وليس له أن يشرع لا أن يعدل أو يلغي شيئا من شرع الله ، فهو مجرد إنسان يعيش بين البشر يأكل ويشرب ويتزوج وينجب ، فكان **بسنته الفعلية منهجا للبشر** كما أن في سنته القولية تشريع لهم باعتبارها وحي من الله ، بذلك يستبين أن الحاكمية لله والتشريع له وحده سبحانه ، وليس على الرسول غير البلاغ ، فإنما هو مبلغ وليس مسئولا عن تحقيق النتائج .

وإن شئت أن تعجب فالعجب من **حال الذين لا يرون آية الله في نصرة الذين آمنوا وأيلولة الأرض لهم** بانتشار هذا الدين ، والفتح على المؤمنين ، إذ لا يسوغ لهم الجدال بعد رؤية الفتح وانتشار الإسلام ، ولا حجة لهم ، فتحقيق وعد الله في الفئة المؤمنة ونصرته لهم **آية معجزة** تأطر القلوب للإسلام ، وقد استبان لهم أنه مهما كاد الكافرون ومكروا فإن العاقبة للمؤمنين والنصر لهم ، لكنهم وبالرغم من ذلك – بعضهم – **لا يزالون يجادلون** في الرسول والقرآن ، وفي ذات الوقت يظل استشهاد أهل الحق بالله كافيا ، وقد أظهر آياته في كتابه المنظور وكتابه المقروء ، وضم لشهادته التي يستقرأها الناس في آيات الله الكونية وكتابه الذي أنزله ، **شهادة العلماء بالكتاب** ، فهم حجة الله على الناس بعد الرسل .

محتوى الموضوعات

تمهيد : – 1
محتوى الموضوعات 4
مقدمة سورة الرعد : استدراك الله على من لا يؤمنون به بالإشارة إلى آياته من حولهم 5
المحور الأول العجب من منكري البعث – أهل الجدل– المستعجلين بالسيئة قبل الحسنة 20
المحور الثاني : الأدلة على تدبير الله الكبير المتعال لشئون خلقه وحفظهم 24
المحور الثالث: دلالات "البرق والرعد والظل وماء المطر" على الله الواحد القهار 32
المحور الرابع : الحسنى لأهل الاستجابة وسوء العاقبة لناقضي الميثاق المفسدين في الأرض 48
المحور الخامس : القرآن منهج حياة وليس أداة تخرق عاداتهم الطبيعية فتصير للخلود في الدنيا 64
المحور السادس : الحكم العربي 75
خاتمة الرعد : إعجاز أهل الجدل بشهادة الله وقد ضم معها شهادة العلماء 91

مقدمة سورة الرعد

استدراك الله على الذين لا يؤمنون ، بالإشارة إلى آياته من حولهم

قال تعالى (الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (1) اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ (2) وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (3) وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) (4)

قوله (الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ) (1) **الإشارة إلى أن الكتاب حق هي المسألة المحورية للسورة** ، وبالرغم من ذلك فإن أكثر الناس لا يؤمنون بها ، (**وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ**) [يوسف 103]، والعجيب أن الآيات التي أنزلت من رب محمد ﷺ ، دلالتها واضحة ومؤكدة على أنها الحق ، فعلام يكفرون بها ولا يؤمنون ؟ قال تعالى (**وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا**) .

ثم نجد أن **عدم إيمان الناس بالكتاب يتخذ صورا شتى** ، فمنهم من لا يؤمن به البتة ، ومنهم من يؤمن بأنه كتاب الله ولكنهم **لا يؤمنون بصلاحيته للتطبيق** ، وآخرون يؤمنون بأنه صالح للتطبيق لكنهم يستبدلون بعضا بشيء من عندهم ، وآخرون يرون في هذا الدين صلاحا لحياتهم ومعايشهم لكنهم لا يؤمنون به إذا ما ابتلوا بشيء من الضر ، فلا يصبرون ، وهكذا تتعدد صور عدم الإيمان بكتاب الله تعالى .

ومن أكثر صور عدم الإيمان به التباسا ، هو أن يأتي الفعل مخالفا للقول بالإيمان به ، ويشهد ذلك قول النبي ﷺ (**لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَسْرِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَشْرَبُ حِينَ يَشْرَبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ** ، وَالتَّوْبَةُ مَعْرُوضَةٌ بَعْدُ)[1]، والمعنى أن الـ (مؤمن) هو ما تناهى عن الكبائر فإذا لابسها لم يكن في حال الملابسة مؤمنا ، أي مستكمل الإيمان ، فقوله ﷺ (وهو مؤمن) يريد في **وقت التلبس بالمعصية** ، يقول ابن قتيبة (أنه إذا زنى الزاني سلب الإيمان ، فإن تاب ألبسه ، أما الرجل إذا صدق بلسانه وقلبه وأدى الفرائض واجتنب الكبائر ، فذلك المؤمن حقا المستكمل شرائط الإيمان)[2] .

---

[1]) رواه البخاري ج21 ص 79 رقم 6312
[2]) تأويل مختلف الحديث ج1 ص 171

كذلك قول رسول الله ﷺ (**لم يؤمن من لم يأمن جاره بوائقه**) (يعني ليس بمستكمل الإيمان) ، قال الألباني (وقد نفى رسول الله – ﷺ الإيمان عن الزاني، والسارق، وشارب الخمر، وعمن لا يأمن جاره بوائقه، وإذا نفى عنه اسم الإيمان؛ فهو **كافر من جهة العمل، وانتفى عنه كفر الجحود والاعتقاد**)[1] ، أي إذا كان يقر ويصدق باللسان ، قال النووي (فالقول الصحيح الذى قاله المحققون أن معناه لا يفعل هذه المعاصى وهو كامل الايمان ، وهذا من الألفاظ التى تطلق على نفى الشيء ويراد نفى كماله ومختاره)[2].

والقرآن حينما يكشف لنا عن حال أكثر الناس بأنهم لا يؤمنون ، فإنه يقصد أن يكشف لنا ذلك عندما **يصادف القرآن قلوبهم لأول مرة** ، وقد ألفت قلوبهم خلافه ، لاسيما أهل مكة حين نزل عليهم القرآن أول مرة ، فمن الطبيعي أن **تقف العادات والتقاليد والأعراف حائلا دون قبول هذا الكتاب وما فيه من أحكام** ، فلا ينزعج الدعاة إلى الله بأن الأكثرية غير المؤمنة ، فهو أمر مؤقت يزول مع الوقت ، فهذا أمر أشار إليه أبو سفيان في حديثه مع هرقل ، قال هرقل (أَشْرَافُ النَّاسِ اتَّبَعُوهُ أَمْ ضُعَفَاؤُهُمْ ؟ فَذَكَرْتَ أَنَّ ضُعَفَاءَهُمْ اتَّبَعُوهُ وَهُمْ أَتْبَاعُ الرُّسُلِ **وَسَأَلْتُكَ أَيَزِيدُونَ أَمْ يَنْقُصُونَ فَذَكَرْتَ أَنَّهُمْ يَزِيدُونَ وَكَذَلِكَ أَمْرُ الْإِيمَانِ حَتَّى يَتِمَّ**)[3].

من هنا يستبين عظم المسئولية التي ينبغي أن ينتبه إليها الدعاة إلى الله تعالى ، ويدركوا مدى الجهد الشاق الذي ينتظرهم ، وما ينبغي أن يقوموا به ، وهم يحاولون **إقناع الأكثرية بما لم تؤمن به** ، فلا يكتفون بمجرد تلاوة كتاب الله على الناس دون أن يشرحوا لهم ما في الكون من آيات ، وما في العلم من معجزات تطابق ما أخبر عنه القرآن ، ويستعينون في ذلك بمنهج القرآن ذاته ، **فالقرآن يفتح قلوب المنكرين على أسرار الكون فتنشرح صدورهم** وهم يستمعون إلى آيات الله تتلى عليهم ، فلا تنغلق أعينهم عنها ، ولا تصم أذنيهم ، **فلا ينبغي أن يختزل الجهد الدعوى في تبليغ القرآن تبليغا مجردا من الشرح والتفسير والبيان** ، بل لابد وأن يتضاعف ليكون ثمة **جهدا موازيا لأن يروا آيات الله المنظورة في كونه الفسيح** حتى تتعلق قلوب الناس بكتاب الله المقروء وكتابه المنظور على وجه سواء .

قوله (اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا..) (2) فهذا هو **أول استدلال عقلي في السورة لإثبات** وجوب الإيمان بالله تعالى ، ومحل الاستدلال السماوات التي لا تعمى عنها الأبصار ، ووجه الاستدلال أنها مرفوعة بغير عمد ، فهذه أية لا يغفل عنها أحد ، ولا يقدر على المجادلة فيها منكر ، فهي آية تأطر الناس للإيمان أطرا لو لم يستكبروا .

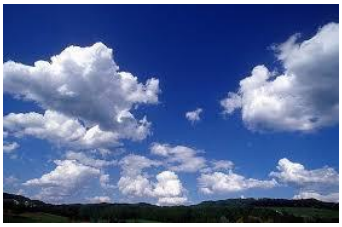

[1]) السلسلة الصحيحة المجلدات ج21 ص 8
[2]) شرح النووي على مسلم ج2 ص 41
3) رواه البخاري ج1 ص 8 رقم 6

يقول الدكتور زغلول النجار: تشير الدراسات الكونية إلى وجود **قوى مستترة في اللبنات الأولية للمادة** وفي كل من الذرات والجزيئات وفي كافة أجرام السماء، **تحكم بناء الكون وتمسك بأطرافه** إلى أن يشاء الله تعالى فيدمره، ويعيد خلق غيره من جديد، ومن القوى التي تعرف عليها العلماء في كل من الأرض والسماء أربع صور يعتقد بأنها أوجه متعددة لقوة عظمى واحدة تسري في مختلف جنبات الكون لتربطه برباط وثيق وإلا انفرط عقده وهذه القوى هي:-

. القوة النووية الشديدة.

. القوة النووية الضعيفة.

. القوة الكهربائية / المغناطيسية أو الكهرومغناطيسية.

. قوة الجاذبية.

وهذه القوى الأربع هي الدعائم الخفية التي يقوم عليها بناء السماوات والأرض وقد أدركها العلماء من خلال آثارها الظاهرة والخفية في كل أشياء الكون المدركة ، ويعتقد علماء الفلك والفيزياء الفلكية والنظرية أن **هذه القوى الأربع لابد وأن تلتقي في شكل واحد للقوى** يمثل وحدة البناء في هذا الكون، ويشهد لله الخالق بالوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه)[1].

قوله (.. ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ..) (2) استتبع ذكر آية كونية مشاهدة ذكر آية "الاستواء على العرش" ، وهي أمر غيبي يتعذر تصديقه من هؤلاء المنكرين ، لكن ما سبق ذكره من آية مشاهدة يقلل من حدة إنكارهم لهذا الغيب ، وبالتالي تستوعب عقولهم **صفة الله** تعالى وإن لم يدركوه ولن يدركوه ، فهو **مستو على عرشه سبحانه ، بائن من خلقه ، لا يحيطه مكان ولا زمان** ، فصفة العلو ثابتة له سبحانه ، فعبر بالاستواء على العرش تقريباً للإفهام للدلالة على سعة ملكه وقدرته وتدبيره ، وبالرغم من وضوح المسألة فإن أهل الإسلام اختلفوا فيها على ثلاثة أقوال[2] :-

القول الأول :الله في كل مكان، وهو قول المعتزلة ومنهم الشيعة ، ويريدون بذلك أن تدبيره في كل مكان كما نقله أبو الحسن الأشعري عن جمهور المعتزلة في كتابه مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين ، **ونضبط قولهم** بأن الله لا يحويه مكان ولا زمان ، فهو محيط بكل شيء ، وهو الأول والآخر ، وبذلك ننفي عنه الحاجة والافتقار إلى الاحتواء ، من هنا استبان وجه عدم الصواب في هذه العبارة .

القول الثاني : الله ليس في أي مكان ، وليس داخل في العالم ولا خارجه ، ولا فوق ولا تحت، ولا يمين ولا شمال، وهذا قول الأشاعرة ، وغرض هؤلاء تنزيه الله تعالى عن أن يحويه مكان أو زمان ، وهم يحمدون لمحاولة التنزيه تلك ، لكن يخطئهم البعض أنهم **توسعوا في تأويل صفة العلو والاستواء** ، بمعنى القهر والاستيلاء ، فلم يقتصروا على إثبات ما أثبته الله لنفسه من **صفة الفوقية** دون تأويل ، لم يثبتوا لله تعالى ما أثبته لنفسه من **صفة الفوقية** سبحانه ، دون

---

1) من الإعجاز العلمي في القرآن الكريم: رفع السموات بغير عمد الحلقة السادسة بقلم الدكتور: علي محمد الصلابي ربيع الآخر 1441ه/ديسمبر 2019م
https://www.alsalabi.com/article/583

2) نقلها : محمد بن علي بن جميل المطري : الله تعالي مستو علي عرشه في السماء
رابط الموضوع: https://www.alukah.net/sharia/0/95394/#ixzz7GADCjYM8

توسع في التأويل ، لأن هذا التوسع في التأويل منتقد من جهة أن القول بالاستيلاء يستلزم خلو العرش قبل الاستيلاء وهذا محال ، فكان يكفيهم إثبات الصفة والوقوف عند ذلك ، و**هو العلي** ولا يعلو عليه شيء.

القول الثالث : **الله في السماء** أي على السماء **مستو على عرشه كما يليق بعظمته وجلاله ، وعلمه في كل مكان**، وهذا قول السلف من الصحابة والتابعين ومن اتبعهم من أهل السنة "وعلماء الصحابة والتابعين أن الله على العرش وعلمه في كل مكان، وما خالفهم أحد في ذلك يحتج به" [1] .

وأهل السنة سلكوا هذا المنهج فكتفوا بإثبات الصفة دون تأويل كما ثبت من إقرار رسول الله ﷺ لإجابة الجارية لما سئلت أين الله ؟ فقالت في السماء فقال (أعتقها فإنها مؤمنة)[2] ،ولما ثبت في الكتاب قوله سبحانه (أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ) (الملك 16) ، **وأهل السنة وإن كانوا يثبتون لله جهة العلو، فإنهم يعنون بالسماء معناها اللفظي** (السمو) و(العلو) ، فكل ما علا فهو سماء ، **ليس المقصود بالسماء تلك المخلوقة التي نراها** ، وإنما يقصدون بذلك **علو الله بالكيفية التي يعلمها هو ولا نعلمها نحن** ، لأن الناس جميعا يتعذر عليهم أن يقدروا الله حق قدره .

قوله (..وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ) (2) أعاد القرآن الاستدلال مرة أخرى بآيات الله الكونية المشاهدة ، للتأكيد على معنى أن الله مستو على عرشه بائن من خلقه ، فأحاط بهذا المعنى المراد سوقه بآيتين ، أية قبل وأية بعد وصف الله بالاستواء ، ليتصور المؤمن بالله ما يليق به سبحانه.

فدلل الله على هذا المعنى بوصف أن السماء مرفوعة بغير عمد ، ثم بقوله سبحانه (وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ) أي أنه سبحانه هو الذي سخر الشمس ، **فأظهر بها النهار وجعل حرارتها دفء وهاجا لأهل الأرض** ، فلا هم يحترقون من شدة حرارتها ، ولا يبتعدون عن حرارتها فتبرد أجسامهم فيموتوا متجمدين من البرد .

فسطح الشمس هي الطبقة التي تُرى من الأرض ن ويبلغ سمكها حوالي 500 كيلومتر، وهي أبرد منطقة في الشمس، ودرجة حرارة سطح الشمس حوالي5800 درجة مئوية، ولما كان متوسط المسافة بين الأرض والشمس حوالي150 **مليون كيلومتر** ، فإنه نتيجة لذلك يبلغ **متوسط درجة الحرارة السنوية على طول خط الاستواء تقريباً 26 إلى 28 درجة تقريبا** ، وهي المنطقة التي **تتعامد** عليها أشعة الشمس ، وتقل درجة حرارة الجو كلما ابتعدنا من خط الاستواء حتى تصل إلى درجة التجمد عند القطبين ، فمن الذي سخر الشمس لتمد الأرض بهذا الدفء من هذه المسافة الهائلة لتتناسب درجة حرارة الأرض مع حاجة جسد الإنسان والكائنات الحية ، فسبحان الله أن حفظ هذه المسافة بينهما .

---

1) قال أبو عمر بن عبدالبر رحمه الله في التمهيد (7/ 138)
2) رواه مسلم ج3 ص 140 رقم 836

كما سخر القمر فهو **يضيء في ظلمات** الليل ، ولو غاب لأضحى الليل كله حالكا ، كما يعد القمر حيوياً لاستقرار كوكب الأرض، حيث تعمل **جاذبيته على تثبيت ميل محور الأرض**، مما يضمن استقرار المناخ وتتابع الفصول بشكل منتظم، ويعمل كدرع طبيعي ضد النيازك، ويحدد عبر أطواره التقاويم الزمنية

كما أنه المسبب الرئيسي لظاهرة المد والجزر التي تنظم البيئات البحرية ، **فالقمر هو العامل الرئيسي في ظاهرة المد والجزر**، حيث تعمل جاذبيته على سحب مياه المحيطات نحوه، مما يسبب ارتفاعاً (مداً) في الجهة المواجهة له والجهة المقابلة، وانخفاضاً (جزراً) في المناطق الأخرى. تحدث هذه الظاهرة بشكل دوري كل 12 ساعة تقريباً بسبب دوران الأرض حول محورها ، مما يؤدي إلى حدوث مدين وجزرين يومياً في معظم الشواطئ.، وتزداد شدتها عند اقتران القمر والشمس (بدر أو محاق) ، فرغم أن الشمس أكبر من القمر ، إلا أن القمر أقرب بكثير إلى الأرض، مما يجعل تأثير جاذبيته في المد والجزر أقوى بمرتين تقريباً من تأثير الشمس.

وتتمثل أهمية حركتي المد والجز في **حماية النظم البيئي البحري** ، إذ يعمل المد العالي على نقل المواد الغذائية والرواسب إلى المناطق الساحلية، مما يدعم حياة العديد من الكائنات البحرية، بينما يساعد الجزر في تنظيف الشواطئ ، وتحقيق التوازن البيئي في البحار والمحيطات ، حيث يساهم في خلط مياه المحيطات، مما يؤثر على توزيع درجات الحرارة والكائنات البحرية ، كما أن لحركتي المد والجزر تأثير جيولوجي ، حيث تؤثر قوى المد والجزر على معدل دوران الأرض حول محورها .

قوله (..كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى..) (2) أثبت علماء الفضاء والفلك أن المجموعة الشمسية لا تقبع في مكانها، بل تندفع في رحلة كونية مهيبة ، فتدور الشمس حاملةً معها الكواكب حول مركز مجرة "درب التبانة" بسرعة هائلة تبلغ حوالي (230) كيلومترًا في الثانية، وتستغرق هذه الدورة الواحدة نحو (230) مليون سنة.

أي أن كلا الكواكب والنجوم –لاسيما الشمس والقمر– تتحرك معا بمقدار معين في الكون الفسيح ، (**وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا** ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ) (يس 38) ، فهي مسخرة بأمر الله ، واكتشاف العلم لجريانها كافية للإقرار بأن الله تعالى (يُدَبِّرُ الْأَمْرَ) .

وقوله (..يُدَبِّرُ الْأَمْرَ..) (2) يعني إنفاذ أمره وإبرامه على نحو محكم وبديع ، قال أبو حيان (عبر بالتدبير **تقريباً للأفهام** ، إذ "**التدبير**" **إنما هو النظر في إدبار الأمور وعواقبها** ، وذلك من صفات البشر ، والأمر أمر ملكوته وربوبيته ، وهو عام في جميع الأمور من إيجاد وإعدام وإحياء وإماتة وإنزال وحي وبعث رسل وتكليف وغير ذلك)[1].

1) البحر المحيط لابن حيان ج7 ص 89

وقالوا في "التدبير" – لغة – أنه **تنزيل الأمور في مراتبها على إحكام عواقبها** [1]، وأن الله يقدر أمور الكائنات على ما اقتضه حكمته وسبقت به مشيئته ، فيصرف شأنها بنظام دقيق وحكمة بالغة [2].

فلا يحصل شيء في الكون إلا بتدبيره ، حتى الورقة لا تسقط إلا بعلمه وقدرته وبحكمته ولحكمة هو يعلمها ، قال سبحانه (وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ **وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا** وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ)(59) .

وقوله (..يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ) (2) فهي من **الكثرة والتنوع** ما يقطع حجة أي أحد في إنكار معرفتها ، فقد جعل الرعد آية للعُمي وجعل البرق آية للصُم ، وجعل المطر آية للصم والبكم والعمي ، وكل ذلك كاف لإثبات الإيمان بلقاء الله (لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ) ، قال الرازي (لأنَّ من قدر على خلق هذه الأشياء ، وتدبيرها على عظمها ، وكثرتها فإنه يقدر على الحشر ، والنشر أولى)[3] . أي (لكي تتفكروا فيها ، وتتحققوا كمال قدرته فتعلموا أنّ مَنْ قدر على خلق هذه الأشياء وتدبيرها قادر على الإعادة والجزاء)[4].

يستبين مما تقدم أن إشكالية عدم إيمان الأكثرية أنها ليست في عدم تفصيل الآيات ، فهي مفصلة وعديدة وكثيرة ، فالإشكالية الحقيقية لعدم الإيمان – ابتداء– هي في **عدم إظهار هذه التفاصيل للناس** ، أي أنهم أضحوا على هذا الحال بسبب سياسة تعمية الناس عن الحق التي يتبعها الصادون عن سبيل الله إزاء قلة جهد الدعاة إلى الله تعالى في تبصيرهم بآيات الله ، وقلة سعيهم لإزالة عوامل الصد عن سبيل الله ، وتلك هي الإشكالية الثانية لتوصيف الداء .

فعَنْ قَتَادَةَ قَوْلُهُ " لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ " ، قَالَ: إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، إِنَّمَا أَنْزَلَ كِتَابَهُ وَبَعَثَ رُسُلَهُ لِيُؤْمَنَ بِوَعْدِهِ، وَلِيُسْتَيْقَنَ بِلِقَائِهِ"[5]، **فإذا ما أظهر الرسل والدعاة إلى الله تفاصيل الآيات ، وأزالوا تلك الموانع تعرف الناس علي الله ربهم من خلال آياته** ، وبالتالي أيقنوا لقاءه ،كما في قوله (سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ)(فصلت53) ، فقد عمل السلف لأجل ذلك ، ولذلك انتشر الإسلام في ربوع الأرض ، ويجب أن نعمل اليوم لأجل ذلك كذلك .

---

[1]) أي ترتيب الأشياء حسب أهميتها وتأثيرها، مع الأخذ في الاعتبار النتائج المترتبة عليها قبل اتخاذ القرار .إنه يدل على التدبر والفكر العميق في تقدير كل أمر وتأثيره المحتمل، وإعطاء الأولوية لما هو أهم، وما يؤدي إلى نتائج أفضل وأكثر استقرارًا على المدى الطويل

2) انظر هذه المعاني في "التفسير الوسيط - مجمع البحوث الإسلامية " (4/ 50)، (4/ 82)، (5/ 402

3) تفسير الفخر الرازي ج1 ص 2574 ، اللباب في علوم الكتاب ج9 ص 379

[4]) البحر المديد ج3 ص 147

[5]) تفسير ابن أبي حاتم ج8 ص 488

قوله (..وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا ..) (3) فعندما نتأمل في خلق الأرض نلمح –أول شيء– **وسعها** ، فننبهر به ، فقد أمدها الله امتدادا يتسع للبشرية منذ ولادة آدم إلى قيام الساعة ، كما ينبهر **بقوة الجبال** التي خلقها ، لتعمل على ترسية الأرض في الفضاء الفسيح سنوات وسنوات، فتحافظ على دوران الأرض حول محورها بحركة ومطردة وسرعة ثابتة ،كذلك يلمح الأنهار الممتلئة بالمياه العذبة ،تروي الزرع فتخرج الثمرات ،وتتغذى عليها الكائنات ، وتتكاثر بالتزاوج.

(وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا)

قوله (..وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ..) (3) إن ظاهرة الزوجية في الكائنات الحية ومنها النباتات هي السبب لوجود هذا التنوع الهائل في أشكال وألوان ذات النوع من الكائنات الحية مصداقا لقوله تعالى " فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا "(فاطر27) ، ولولا ظاهرة الزوجية التي أبدعها الله لما تلذذ البشر بمذاق عشرات بل مئات الأصناف من شتى أنواع الثمرات ، ولولا ظاهرة الزوجية لكان أفراد البشر على صورة واحدة ، ولما أمكنهم التعرف على بعضهم البعض ولما عرفوا معنى الجمال في أشكال أجسامهم[1].

ولإدراك الأسرار الموجودة في ظاهرة الزوجية لابد وأن نعلم أن جميع أنواع الكائنات الحية يبدأ تصنيعها من خلية واحدة فقط حيث **تنقسم هذه الخلية إلى خليتين** تنقسمان بدورهما إلى أربعة خلايا وهكذا إلى أن يتم إنتاج جميع الخلايا التي يحتاجها بناء جسم الكائن الحي والتي قد يصل عددها إلى ملايين البلايين ، وفي أثناء عمليات الانقسام

[1]) مدونة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة للاستاذ الدكتور منصور أبو شريعة العبادي دكتوراه الهندسة الكهربائية ام 1982م من جامعة وسكاونسن-ماديسون في الولايات المتحدة الأمريكية – مقال بعنوان : ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون 2014/5/29
http://mansourabbadi.blogspot.com/2014/05/blog-post_29.html

هذه **تتخذ بعض الخلايا المتخصصة مواقع محددة في جسم الكائن الحي** في المراحل الأولى من عملية تصنيعه بحيث ينتج عن انقسامها المتكرر أعضاء الكائن المختلفة كل في مكانه الصحيح[1].

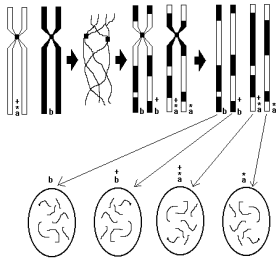

ولقد تبين لعلماء الأحياء أن **الخلية التي يبدأ منها تصنيع الكائن تحتوي في نواتها على شريط بالغ الصغر** والضعف لا يمكن رؤية تفصيلاته إلا بالميكروسكوبات الإلكترونية **وهو شريط الحامض النووي**، وعلى هذا الشريط يوجد كامل التعليمات التي تلزم لتصنيع الكائن الحي. ولقد اكتشف العلماء أن المعلومات التي تلزم لتصنيع أيّ كائن حي مكتوبة بطريقة رقمية على عدد من أشرطة الحامض النووي تسمى **الكروموسومات** التي يتراوح عددها ما بين كروموسوم واحد في الفيروسات والبكتيريا وعشرات الكروموسومات في الكائنات الحية الكبيرة. وعلى هذه الكروموسومات توجد آلاف البرامج الرقمية تسمى **الجينات** والتي تحتوي كامل مواصفات الكائن الحي والخطوات التي يتم من خلالها تصنيع هذا الكائن ابتداء من خلية واحدة. وتأتي **الكروموسومات على شكل أزواج كل زوج مكون من شريطين من الحامض النووي** شريط مأخوذ من **الأب** والآخر من **الأم** ، وهما مرتبطان ببعضهما عند منتصفهما تقريبا ويحمل كل منهما نفس الجينات ما عدا اختلاف بسيط في محتوى بعض الجينات كما سنبين تفصيل ذلك لاحقا.

وقد تبين لعلماء الأحياء أن **خلية التكاثر** هذه يتم إنتاجها في كثير من الكائنات الحية من خلال اندماج محتويات خليتين تكاثريتين أحدهما يتم تصنيعها في جسم الذكر والأخرى في جسم الأنثى وهاتان الخليتان تختلفان عن بقية الخلايا العادية بأن عدد الكروموسومات في كل منها يساوي نصف عددها في الخلايا العادية ، وعند اندماج الخليتين الذكرية والأنثوية لينتجا الخلية المسؤولة عن تصنيع الكائن الجديد والمسماة بالنطفة ترتبط الكروموسومات الذكرية مع نظيراتها الأنثوية ليصبح عدد الكروموسومات فيها يساوي العدد الموجود في الخلايا العادية ولكن نصف هذه الكروموسومات قد تم أخذه من الأب والنصف الآخر من الأم وتسمى هذه الطريقة في إنتاج كائنات جديدة بالتكاثر الجنسي[2].

أما في عالم النباتات فإن عملية التكاثر هذه تكون بطريقة مختلفة عن عالم الحيوان ، حيث لا يحدث التكاثر في النبات دون حصول عملية جنسية بين الذكر والأنثى ، والتي تقوم في الحيوان على ثلاث مراحل ، (إنتاج الأمشاج (الخلايا الجنسية)، انتقال الأمشاج عن طريق التزاوج، ثم الإخصاب وتكوين الجنين) ، أما في النبات فإنه يتم اختصار المرحلة الثانية ، فيكون التكاثر في البنات عن طريق انتقال الأمشاج بغير تزاوج ، من خلال التصاق حبوب اللحاق في أرجل الحشرات أو ظهرها أو تحريك الرياح لها من زهرة لأخرى ..الخ ، ورغم الاختلاف في طريق التكاثر هذه إلا أن التنوع الهائل في أصناف النباتات من النوع الواحد يعزى إلى عملية الزوجية هذه .

1) طبيعة الحياة، تأليف فرانسيس كريك، ترجمة أحمد مستجير، عالم المعرفة، أيار 1988م، الكويت.
2) الجينوم (السيرة الذاتية للنوع البشري(، تأليف مات ريدلي، ترجمة مصطفى إبراهيم فهمي، عالم المعرفة، تشرين ثاني 2001م، الكويت.

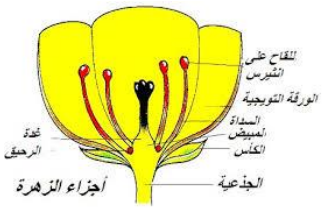

إذ لاحظ عالم النبات النمساوي جريجور مندل في منتصف القرن التاسع عشر بعد أن قام بسلسلة من عمليات التهجين لبعض أنواع النباتات أن أشكال وألوان معظم أجزاء النباتات تتحدد من صفتين تتناقلها هذه النباتات في جيناتها أحدهما صفة سائدة (**dominant** trait) والأخرى صفة متنحية .(**recessive trait**) وقد لاحظ أنه إذا ما اجتمعت صفة سائدة وأخرى متنحية في برنامج التصنيع النهائي للكائن الجديد فإن الصفة السائدة هي التي ستظهر في بنية جسمه ولا تظهر الصفة المتنحية إلا عند اجتماع صفتين متنحيتين في برنامج تصنيعه.

ولولا هذه الزوجية في النبات ما كان هناك إخصاب ولا ثمار ، فالأصل في الإثمار هو وجود الزوجين ، ومن النبات من يحمل أعضاء التذكير على نبات مذكر وأعضاء التأنيث على نبات مؤنث ، وتسمى (النباتات ثنائية المسكن) وذلك مثل النخل ، ومن النبات من يحمل كلاً من أعضاء التذكير والتأثيث على نفس النبات ويسمى (أحادي المسكن) كالصنوبر.

وكان الاعتقاد السائد –قديما – أن النباتات ليس لها من جنسها ذكور، لكن تبين بعد ذلك أنها تحمل في ذاتها الزوج الآخر، فتضم أعضاء التذكير وأعضاء التأنيث مجتمعة في زهرة، أو متفرقة في العود، وهي حقيقة تتضامن مع المشهد في إثارة الفكر إلى تدبر أسرار الخلق بعد تملي ظواهره"[1]

لكن توصل العلم —بعد هذا الاعتقاد الخاطئ– إلى أنه لا يتفق نباتان من نوع واحد في صفاتهما كل الاتفاق، وأن أعضاء التأنيث والتذكير لم تعرف على وجه القطع واليقين إلا مؤخراً، ولأول مرة تم تقسيم النباتات بالاستعانة بعدد الأسدية وكان ذلك بعد عام 1729م، فاكتشف العلماء وجود الأعضاء المذكرة مع المؤنثة في زهرة واحد هو سبب لحصول التكاثر بين النبات ونفسه، لكن هذا يتسبب في إضعاف النوع وعزل الصفات الوراثية السيئة وتجمعها في نبات واحد [2].

قوله (..يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) (3) شبه الليل بغطاء رقيق أسود ، والنهار بالجسد الذي يرتدي هذا الرداء ، فالنهار يتغطى بظلمة الليل رويدا رويدا ، فلما دخل جزء من الليل أسود الكون بالتدريج لكثرة تغطيته بأكثر من رداء أسود شفاف ، حتى تشتد الظلمة ويكثر السواد في السماء فيصبح الليل أسودا حالكا .

---

[1]) في ظلال القرآن لسيد قطب

2) الزوجية في النبات للدكتور نظمي خليل أبو العطا، نقلاً عن موقع:
id=2&http://www.nazme.net/ar/index.php?p=show_articles
لكن في نبات الصنوبر الذي يحمل حبوب اللقاح في مخاريط مذكرة، والبويضات توجد في مخاريط مؤنثة، وحتى يكون هنا تلقيح خلطي ولا يحدث إخصاب ذاتي من ذات الشجرة، نجد أن المخاريط المؤنثة توجد في أعلى الشجرة، والمخاريط المذكرة أسفل منها حتى إذا خرجت حبوب اللقاح وحملها الهواء وجذبتها الجاذبية الأرضية فإنها لا تسقط على المخاريط المؤنثة لنفس الشجرة ويحملها الهواء إلى شجرة مجاورة، وهكذا تكون هناك فرصة كبيرة للتلقيح الخلطي بالهواء بين شجرة وأخرى، ولو كان الوضع معكوساً بحيث تكون المخاريط المؤنثة أسفل والمذكرة أعلى لسقطت حبوب اللقاح من المخاريط المذكرة على البويضات لنفس الشجرة وكانت نسبة التلقيح الخلطي قليلة، فتضعف الصفات الوراثية للنوع والجنس
بحث للدكتور زغلول النجار، نقلاً عن موقع:
cat=6&p=2&id=538&http://www.elnaggarzr.com/index.php?l=ar

(يغشي الليل النهار)

وهكذا تمر الأيام ويتعاقب الليل والنهار ، ويدبر الله الكون بحفظه ورعايته وحكمته ، فهذه الصورة التي صورتها الآية كافية لأن يؤمن الناس بالله الخالق المدبر ، وكل تلك الآيات استعرضها القرآن للناس لعلهم يتفكرون .

قوله (وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) (4) يصف المشهد هنا الأرض الزراعية وهي مقسمة إلى قطع متجاورة كل قطعة بها نوع مختلف من الثمار والزروع رغم أنها جميعا سقيت بماء واحد وخرجت من أرض واحدة

قوله (..وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ..) فالنخيل الصنوان هو الذي له ساق واحدة تتفرع منها أكثر من ساق ، وهناك نوع آخر غير صنوان إلى له ساق واحدة فقط لا يتفرع عنها شيء .

فحديث القرآن عن (الصنوان) يعني بظاهرة الفسائل؛ حيث تخرج فسائل النخيل (والتي قد تُسمى صنواناً) من جذر الأم ، حيث تتطابق جينات هذه الفسائل مع النخلة الأم، بينما تختلف الأشجار النابتة من البذور .

فظاهرة الفسائل تشير إلى عملية التكاثر الخضري اللاجنسي للنباتات، حيث تنمو نبتة صغيرة أو "فسيلة" من البراعم الإبطية الموجودة عند قاعدة النبات الأم أو على جذعه ، فترتبط الفسائل بالنبات الأم عبر جذور خاصة ويمكن فصلها وزراعتها كنبات مستقل يحمل ذات الصفات الوراثية[1].

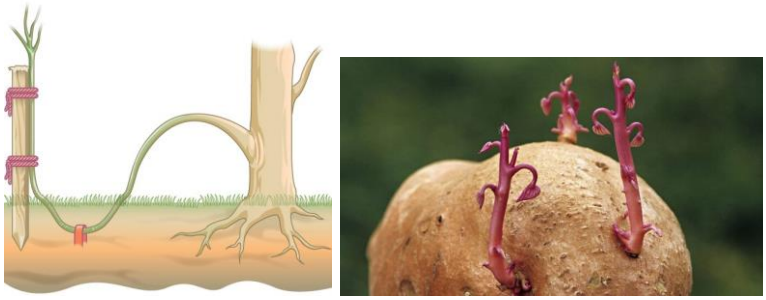

فالتكاثر اللاجنسي في النبات أو (التكاثر الخضري) هو قدرة النبات على إنتاج نباتات جديدة مطابقة تمامًا للنبات الأم وراثيًا، دون الحاجة إلى تكوين بذور أو إخصاب ، يعتمد على أجزاء النبات الخضرية مثل الجذور، والسيقان، والأوراق[2].

وعند عقد مقارنة بين التكاثر الجنسي واللاجنسي في النباتات؛ نجد أن كلاهما له استراتيجية تطورية ناجحة ، فحيث يتفوق التكاثر الجنسي في التكيف مع التغيرات البيئية ، بينما يتفوق اللاجنسي في سرعة الانتشار والحفاظ على صفات النبات الأم ، لكن من عيوب التكاثر اللاجنسي **غياب التنوع الجيني** ، **أي** عدم القدرة على التكيف مع التغيرات البيئية المفاجئة ، فإذا أصيب النبات بمرض قد يقضي على المحصول بالكامل لعدم وجود مناعة متنوعة.

لكن يتميز النخل عن غيره من النباتات بأنه من أكثر النباتات قوة ومقاومة للأمراض ،و تكثر فيه ظاهرة التكاثر الخضري (اللاجنسي) ، ولذلك خصه القرآن بالذكر ، لأن النخل شجرة مباركة ، وفي تكاثرها بتلك الطريقة توريث لخصائص وصفات الشجرة الأم دون تغيير ، فيحافظ على خصائص التمر الذي تثمره النخلة .

ولذلك بوب مسلم بابا بعنوان المؤمن مثل النخلة وذكر تحته حديث عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ قال قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (إِنَّ مِنْ الشَّجَرِ شَجَرَةً لَا يَسْقُطُ وَرَقُهَا وَإِنَّهَا مَثَلُ الْمُسْلِمِ فَحَدِّثُونِي مَا هِيَ فَوَقَعَ النَّاسُ فِي شَجَرِ الْبَوَادِي قَالَ عَبْدُ اللَّهِ وَوَقَعَ

[1] https://www.quora.com/Why-do-angiospermic-plants-prefer-sexual-reproduction-to-asexual-reproduction
[2] https://modernagritec.com/asexual-reproduction-in-plants-what-are-its-types-how-is-it-done-naturally-and-artificially/

فِي نَفْسِي أَنَّهَا النَّخْلَةُ فَاسْتَحْيَيْتُ ثُمَّ قَالُوا حَدِّثْنَا مَا هِيَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ فَقَالَ هِيَ النَّخْلَةُ قَالَ فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِعُمَرَ قَالَ لَأَنْ تَكُونَ قُلْتَ هِيَ النَّخْلَةُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كَذَا وَكَذَا)[1].

ولا يُفضل المزارعون الاعتماد على التكاثر الجنسي (بالبذور) لأسباب زراعية وتجارية، وتتلخص في طريقة عمله : تتطلب العملية مرحلة تسمى "التأبير" أو التلقيح، حيث تُجمع العذوق الذكرية وتوضع بين أزهار النخلة المؤنثة ، حيث إن التكاثر بتلك الطريقة لا يضمن جودة الثمار ، حيث لا تطابق صفات الشجرة الأم ، بل قد ينتج نخيلاً يكون معظمه ذكوراً لا تثمر.

فعنْ أَنَسٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ **مَرَّ بِقَوْمٍ يُلَقِّحُونَ** فَقَالَ لَوْ لَمْ تَفْعَلُوا لَصَلُحَ قَالَ فَخَرَجَ شِيصًا فَمَرَّ بِهِمْ فَقَالَ مَا لِنَخْلِكُمْ قَالُوا قُلْتَ كَذَا وَكَذَا قَالَ أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأَمْرِ دُنْيَاكُمْ)[2]، (يلقحون النخل) يعني (يضعون الطلع الذكري في النخلة الأنثى)

وعَنْ عَائِشَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ سَمِعَ أَصْوَاتًا فَقَالَ مَا هَذَا الصَّوْتُ قَالُوا النَّخْلُ يُؤَبِّرُونَهَا فَقَالَ لَوْ لَمْ يَفْعَلُوا لَصَلَحَ فَلَمْ يُؤَبِّرُوا عَامَئِذٍ فَصَارَ شِيصًا فَذَكَرُوا لِلنَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ إِنْ كَانَ شَيْئًا مِنْ أَمْرِ دُنْيَاكُمْ فَشَأْنُكُمْ بِهِ وَإِنْ كَانَ مِنْ أُمُورِ دِينِكُمْ فَإِلَيَّ)[3] وذلك لضمان الإخصاب فيقومون بفعل ذلك يدويا ، فلما لم يفعلوا فسد الزرع ، ولعل ذلك لقلة الحشرات أو حركة الرياح ، ولعدم تجربتهم بطريقة التكاثر الخضري أي اللاجنسي ، والتي أشار إليها القرآن بلفظ (صنوان).

وقد عرف الصحابة رضوان الله عليهم هذه الطريقة من التكاثر في النخل ،كما في حديث عتق سلمان الفارسي بغرس ثلاثمائة نخلة ، عن سلمان ، قال : كاتبت أهلي على أن أغرس لهم خمسمائة فسيلة ، فإذا علقت فأنا حر ، فأتيت النبي ﷺ فذكرت ذلك له فقال : « اغرس واشترط لهم ، فإذا أردت أن تغرس فآذني » فآذنته فجاء فجعل يغرس إلا واحدة غرستها بيدي ، فعلقن جميعا إلا الواحدة)[4].

وعن النبي ﷺ قال : (إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فإن استطاع أن لا تقوم حتى يغرسها فليغرسها)[5]

1) رواه مسلم ج13 ص 420 رقم 5027
2) رواه مسلم ج12 ص 54 رقم 4358
3) رواه ابن ماجة ج7 ص 333 رقم 2462 وصححه الألباني صحيح ابن ماجة ج2 ص64 رقم 2003
4) رواه البيهقي في سننه الصغرى ج9 ص 196 رقم 3494
5) رواه البخاري في الأدب المفرد ج1 ص 168 رقم479 وصححه الألباني صحيح الأدب المفرد ج 1 ص 195

تعزى أهمية تكاثر النخل بهذه الطريقة هو التحكم في المساحات المزروعة نخلا وتوزيع النخل بشكل هندسي أو حول المزروعات لحمايتها من الرياح .

قوله (..يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ..) حيث يختلف طعم الثمار ومذاقها فيجعل الله من هذه الحلو ومن تلك اللاذع ومن شجرة أخرى المر ...وهكذا ، عنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ فِي قَوْلِهِ "وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ" قَالَ (الدَّقَلُ وَالْفَارِسِيُّ وَالْحُلْوُ وَالْحَامِضُ)[1] .

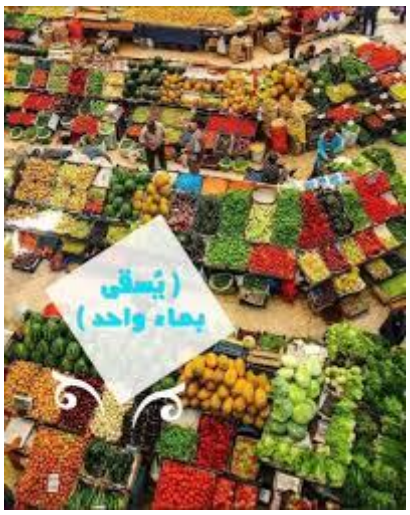

وقال صاحب دروس الزمان (نشَاهِدُ شَجَرَ الْعِنَبِ بِجِوَارِ شَجَرِ الْحَنْظَلِ فِي قِطْعَةٍ وَاحِدَةٍ تُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ ، وَقَدْ جَعَلَ لَكُلِّ شَجَرَةٍ جُذُوراً تَمْتَصُّ بِهَا مِنْ الأَرْضِ مَا يُنَاسِبُهَا مِنْ الْغِذَاء الذِي بِهِ قِوَامُهَا وَحَيَاتُهَا ، وَتَنْفَتِحُ كُلَّ وَاحِدَةٍ عَنْ ثَمَرَةٍ تُخَالِفَ الأُخْرَى فِي اللَّوْنِ وَالطَّعْمِ وَالرَّائِحَةِ ، وَكَذَلِكَ بَاقِي الأَشْجَارِ الْمُتَجَاوِرَةِ الَّتِي أَرْضُهَا وَاحِدَةٌ وَمَاؤُهَا وَاحِدٌ ، أَلا يَدُلُّ هَذَا عَلَى وُجُودِ صَانِعٍ حَكِيمٍ قَادِرٍ)[2]، وقال أهل التفكر (إن اختلاف الأشكال والألوان والروائح والطعوم والمنافع والمضار دليل على الفاعل المختار)[3]

قوله (..وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ..) فالسنة النبوية أشارت إلى تفضيل بعض الأطعمة على بعض ، ولكل نوع فائدة مختلفة ، وعلى رأس هذه الثمار التمر ، ومنها كذلك (الشعير ، اليقطين ، حبة البركة ، زيت الزيتون ، الخل ، العود الهندي ، السنامكا ، الشمر ، الكمون) ، وليس ذلك على سبيل الحصر ، ففي الآية عموم يشير إلى وجوب تعلم التداوي بالنباتات والأعشاب ، ودراسة فوائدها بعناية والتجارب العلمية السليمة .

[1]) رواه الترمذي ج10 ص 388 رقم 3043 وحسنه الألباني : صحيح وضعيف سنن الترمذي ج7 ص 118
[2]) عبد العزيز السلمان : موارد الظمآن لدروس الزمان ج6 ص 368
[3]) محمد بن أحمد بن جزي الكلبي الغرناطي : القوانين الفقهية ج1ص12

- ✓ فعَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَا عَائِشَةُ (**بَيْتٌ لَا تَمْرَ فِيهِ جِيَاعٌ أَهْلُهُ**) يَا عَائِشَةُ بَيْتٌ لَا تَمْرَ فِيهِ جِيَاعٌ أَهْلُهُ أَوْ جَاعَ أَهْلُهُ قَالَهَا مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا)[1].

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (**مَنْ تَصَبَّحَ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعَ تَمَرَاتٍ عَجْوَةً** لَمْ يَضُرَّهُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ سُمٌّ وَلَا سِحْرٌ)[2]

- ✓ وقد بوب البخاري بابا بعنوان التلبينة ، وهي الشعير المطحون ، وذكر تحته حديث عَنْ عَائِشَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهَا كَانَتْ إِذَا مَاتَ الْمَيِّتُ مِنْ أَهْلِهَا فَاجْتَمَعَ لِذَلِكَ النِّسَاءُ ثُمَّ تَفَرَّقْنَ إِلَّا أَهْلَهَا وَخَاصَّتَهَا أَمَرَتْ بِبُرْمَةٍ مِنْ تَلْبِينَةٍ فَطُبِخَتْ ثُمَّ صُنِعَ ثَرِيدٌ فَصُبَّتْ **التَّلْبِينَةُ** عَلَيْهَا ثُمَّ قَالَتْ كُلْنَ مِنْهَا فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ **التَّلْبِينَةُ مُجِمَّةٌ لِفُؤَادِ الْمَرِيضِ** تَذْهَبُ بِبَعْضِ الْحُزْنِ)[3]
- ✓ وعنها قالت سَمِعَتْ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ (إِنَّ هَذِهِ **الْحَبَّةَ السَّوْدَاءَ** شِفَاءٌ مِنْ كُلِّ دَاءٍ إِلَّا مِنْ السَّامِ قُلْتُ وَمَا السَّامُ قَالَ الْمَوْتُ)[4]
- ✓ كما روي أن النبي ﷺ كان يحب الدباء وهو القرع (اليقطين) ، وقيل أنه طعام الأنبياء ، وأن يونس لما خرج من بطن الحوت مصابا بالتهابات أنبت الله عليه شجرة من يقطين ، فعنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ كُنْتُ غُلَامًا أَمْشِي مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَدَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى غُلَامٍ لَهُ خَيَّاطٍ فَأَتَاهُ بِقَصْعَةٍ فِيهَا طَعَامٌ وَعَلَيْهِ دُبَّاءٌ فَجَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَتَتَبَّعُ **الدُّبَّاءَ** قَالَ فَلَمَّا رَأَيْتُ ذَلِكَ جَعَلْتُ أَجْمَعُهُ بَيْنَ يَدَيْهِ قَالَ فَأَقْبَلَ الْغُلَامُ عَلَى عَمَلِهِ قَالَ أَنَسٌ لَا أَزَالُ أُحِبُّ **الدُّبَّاءَ** بَعْدَ مَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ صَنَعَ مَا صَنَعَ)[5].
- ✓ وعَنْ عَائِشَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ (**نِعْمَ الْأُدُمُ أَوْ الْإِدَامُ الْخَلُّ**) [6] ، والخل يتم تصنيعه من سكر الفاكهة مثل التفاح أو العنب (خل العنب)، التمر، التين، والأناناس أو الحبوب والمواد النشوية :مثل الأرز، والشعير، والذرة.
- ✓ وقد كان النبي ﷺ يعتني بزيت الزيتون عناية خاصة ويهتم به ، ولذلك قال ﷺ (**كُلُوا الزَّيْتَ وَادَّهِنُوا بِهِ فَإِنَّهُ مُبَارَكٌ**)[7]

وقال الألباني : (ويكفي في فضل الزيت قول الله تبارك وتعالى : (يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار) ، وللزيت فوائد هامة ذكر بعضها العلامة ابن القيم في زاد المعاد)[8]

- ✓ وعن عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّ أُمَّ قَيْسٍ بِنْتَ مِحْصَنٍ وَكَانَتْ مِنْ الْمُهَاجِرَاتِ الْأُوَلِ اللَّاتِي بَايَعْنَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَهِيَ أُخْتُ عُكَاشَةَ بْنِ مِحْصَنٍ أَخْبَرَتْهُ أَنَّهَا أَتَتْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بِابْنٍ لَهَا قَدْ عَلَّقَتْ عَلَيْهِ مِنْ الْعُذْرَةِ فَقَالَ اتَّقُوا اللَّهَ عَلَى مَا تَدْغَرُونَ أَوْلَادَكُمْ بِهَذِهِ الْأَعْلَاقِ عَلَيْكُمْ بِهَذَا **الْعُودِ الْهِنْدِيِّ** فَإِنَّ فِيهِ سَبْعَةَ أَشْفِيَةٍ مِنْهَا ذَاتُ الْجَنْبِ يُرِيدُ **الْكُسْتَ**، يَعْنِي الْقُسْطَ قَالَ وَهِيَ لُغَةٌ)[9].

---

[1]) رواه مسلم ج10 ص 356 رقم 3812
[2]) رواه البخاري ج17 ص 78 رقم 5025
[3]) رواه البخاري ج17 ص 32 رقم 4997
[4]) رواه البخاري ج17 ص 448 رقم 5255
[5]) رواه البخاري ج17 ص 61 رقم 5015
[6]) رواه مسلم ج10 ص 371 رقم 3823
7) رواه ابن ماجة ج10 ص 60 رقم 3311 وحسنه الألباني : صحيح سنن ابن ماجة)
8) السلسلة الصحيحة مختصرة ج1 ص 724)
[9]) رواه البخاري ج17 ص 490 رقم 5279

- العُذْرَة :مرض يصيب الأطفال في الحلق (يُعرف قديماً بـ "السَّقْطَة" أو التهاب اللوزتين وما يصاحبه من تورم.
- أعلقت عليه :أي قامت الأم بـ (التعليق)، وهو وضع خيوط أو تمائم أو أدوية معينة في رقبة الطفل لرفع العذرة (علاج شعبي جاهلي)
- تدغرون :الدَّغْرُ هو الضغط بقوة أو العصر (بالإصبع) في الحلق أو الأنف لعلاج العذرة.
- الأعلاق / العِلاق :جمع عِلاق، وهو ما يُعلق على الصبي من تمائم أو أدوية.
- ذات الجنب :مرض التهابي يصيب الغشاء المبطن للقفص الصدري (غشاء الجنب)، ويسبب ألماً شديداً في الصدر)[1]

✓ وعن النبي ﷺ قال (**عليكم بالسنا والسنوت** فإن فيهما شفاء من كل داء إلا السام قيل : يا رسول الله وما السام ؟ قال : الموت) [2]

- عشبة السنا (السنامكي) شجيرة عُشبية تُستخدم أوراقها وثمارها كمليّن طبيعي[3].
- السّنوت :اختلف العلماء في تحديده قديماً وحديثاً، والرأي الأرجح عند العطارين والمختصين هو بذور الشمر (الشومر)، وقيل في بعض الآثار إنه الكمون .

ومن فوائدهما : تطهير الجهاز الهضمي حيث تُعد عشبة السنا من أقوى الأعشاب الملينة التي تعالج الإمساك الشديد وتطرد الغازات.

وطرد السموم :تساعد في تنظيف المعدة والأمعاء والتخلص من الفضلات المتراكمة.

وتخفيف الآلام :يُساهم الشمر (السنوت) في تهدئة المغص، بينما يعالج السنا الصداع الناتج عن مشاكل القولون والإمساك .

قوله (..إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) فكثير من الناس **يمرون على هذه الآيات** فلا تثير حتى رغبتهم في التطلع ، إلا من لا يزال على الفطرة ، فيجد بينه وبين الكون اتصالا وانسجاما ، فيتأمل ويتفكر ليزداد إيمانا على إيمانه .

والمعنى أنه ما أحد يتدبر هذه الآيات إلا واستدل بها على وحدانية الله تعالى ، شريطة أن يستعمل عقله ، فلا يخذله ، قال سيد قطب (وهكذا يتقرر أن الذين لا يستجيبون لهذا الحق **هم بشهادة الله سبحانه عُمْي** ، وأنهم لا يتفكرون ولا يعقلون ، وأن الذين يستجيبون له هم أولو الألباب ، وهؤلاء تطمئن قلوبهم بذكر الله ، وتتصل بما هي عارفة له ومصطلحة عليه بفطرتها العميقة ، فتسكن وتستريح) [4].

---

[1]) انظر : فتح الباري شرح صحيح البخاري.ج10 ص148 التيسير بشرح الجامع الصغير للمناوي ج2 ص 283 / شرح ابن بطال ج9 ص 398 -414

[2]) رواه الحاكم في المستدرك ج4 ص 224 رقم 7442 ورواه ابن ماجة وصححه الألباني : صحيح كنوز السنة النبوية

[3]) تُعرف علمياً باسم

Cassia angustifolia أو Cassia senna.

[4]) في ظلال القرآن ج4 ص 353

المحور الأول

العجب من منكري البعث – أهل الجدل– المستعجلين بالسيئة قبل الحسنة

قال تعالى (وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (5) وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ (6) وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ (7)

تعجب القرآن من إنكار الكافرين البعث ، وصدق عجب رسول الله منهم ، أينكرون على الله ذلك وهو خلقهم وخلق ما حولهم ، ولذلك تتوعدهم بسوء المصير في الآخرة ، ولكنهم بسخريتهم المعهودة يستعجلون العذاب في الدنيا والآخرة ، ولم يعتبروا بقصص من سبقهم ، ولكنها مغفرة الله التي تسبق غضبه ، رغم أن هؤلاء الكفار لا ينتهون من طلب المعجزات المادية ، وهي تحيط بهم من كل جهة .

قوله (وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ) التفت الخطاب إلى النبي ﷺ لتصدق عجبه من الكافرين بالبعث ، رغم ما تقدم ذكره من آيات تدل على قدرة الله ، قال ابن جزي أي (إن تعجب يا محمد فإن إنكارهم للبعث حقيق أن يتعجب منه ، فإن **الذي قدر على إنشاء ما ذكرنا من السموات والأرض والثمار قادر على إنشاء الخلق بعد موتهم**)[1] .

قال الماوردي (معناه وإن تعجب يا محمد من تكذيبهم لك فأعجبُ منه تكذيبهم بالبعث ، والله تعالى لا يتعجب ولا يجوز عليه التعجب ، لأنه تغير النفس بما تخفى أسبابه ، وإنما ذكر ذلك ليتعجب منه نبيه والمؤمنون)[2] .

وهكذا يعلمنا القرآن كيف يكون التعجب وسيلة دعوية ، للثبات على المبدأ والإنكار علي مخالفيه ، **بأسلوب لا يتضمن تهكما ولا سخرية ولا استهزاء** ، وإنما هو مجرد تعجب خالي من أي صورة من صور الاعتداء المعنوي ، ولكنها **حرية الفكر والاعتقاد والرأي** ، **وحرية التصريح به** دون تلجلج أو خوف .

وتأثير ذلك ناجع من الناحية الدعوية حيث يظهر **بلاهة الكفار وضيق أفقهم** ، **وعدم قياسهم للأمور القياس السليم** ، **وتجافي تفكيرهم للمنطق السليم** ، فالذي قدر على الخلق أول مرة أيستعصي عليه أن يعيده ، والذي خلق الخلق بهذا الإبداع المنظور هل يفني هذا الخلق وينتهي الأمر ، أم يعيده ويحاسبه ويجازي كل امرئ بما عمل ؟ قال تعالى (أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ) (المؤمنون 115).

---

[1]) التسهيل لعلوم التنزيل ج1 ص 757
[2]) النكت والعيون ج2 ص 298

قوله (**أُولَئِكَ** الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ **وَأُولَئِكَ** الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ **وَأُولَئِكَ** أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) (5) **أشار إليهم بالكفر مرة** لأنهم أنكروا آيات الله المنظورة ، فلم تؤمن بها قلوبهم ، وقد رأتها أعينهم وسمعتها آذانهم ، **ثم أشار إليهم بحالهم** وقد قيدت أعناقهم بالأغلال كناية عن الأسر والسجن والذل والصغار لأنهم لم يقولوا هذا القول إلا عن كبر وأنفة واستعلاء ، **ثم أشار إليهم بالخلود في النار ومصاحبة العذاب لهم** للتأكيد على أنهم خسروا آخرتهم التي طالما كذبوا بها ، مصداقا لقوله تعالى (هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ (14) أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ (15) اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) (الطور 16)

قال الرازي (وإنما لزم من إنكار البعث الكفر بربهم من حيث إن إنكار البعث لا يتم إلا بإنكار القدرة والعلم والصدق)[1] ، قال القطان (فمثل هذه الأقوال لا تصدر إلا عن من أغلقوا عقولهم وقيدّوها بالضلال وجزاؤهم يوم القيامة أغلالٌ في أعناقِهم يقادون فيها إلى النار)[2].

قوله (وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ) (6) فشأن المنكرين الاستهزاء بالعقوبة ، وعدم الاعتبار بعاقبة الأمم التي خلت ، وكأن إحساسهم قد تبلد ، وقلوبهم تجمدت ، ولم يبق لهم شعور يمكن معه مخاطبتهم باللين أو تؤثر فيه الكلمات ، كما قال تعالى: (**وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ** أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفاً عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ) [النحل: 34].

و (المثلات) : (العقوبات – واحدها مثلة – ويقال المثلات **الأشباه والأمثال** مما يعتبر به)[3]، أي (عقوبات أمثالهم من المكذبين ، فما لهم لم يعتبروا بها)[4] ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، فِي قَوْلِهِ:" " وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلاتُ " ، قَالَ: مَا أَصَابَ الْقُرُونَ الْمَاضِيَةَ مِنَ الْعَذَابِ"[5].

واستعجال الكافرين النبي بأن يأتيهم بالعذاب الذي أنذرهم به هو من قبيل **التحدي** له ، **والاستهزاء** بوعيده لهم ، والاستخفاف بتأييد الله له ، **والاستقواء** بقوتهم هم باعتبارهم قادرون على دفع أي ضرر أو عدوان ضدهم ، (وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ) (سبأ35) ، ذلك أن سنة الله أن يجري عذاب الكافرين على أيدي المؤمنين ، ، كما في قوله (قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ) (التوبة 14) وليس كما جرى في الأمم السابقة التي أنزل الله عذابها من عنده ، (فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ (فصلت 13) ، بل يستعمل الله عباده ليسلطهم عليهم ، وقوله (وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) (الحشر 6) .

---

[1]) مفاتيح الغيب ج19 ص 8
[2]) تيسير التفسير للقطان ج2 ص 272
[3]) شهاب الدين أحمد الهائم : التبيان تفسير غريب القرآن ج1 ص 250
[4]) الكشاف ج3 ص 233
[5]) تفسير ابن أبي حاتم ج8 ص 497

قوله (وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ) قال الزمخشري (والمراد : الحلم عنهم وأن لا يعالجهم بالانتقام فيكون عاماً) [1] ، **فجمع في الآية بين الوعد والوعيد** ليعظم رجاء الناس في فضله، ويشتد خوفهم من عقابه ، فمطامع العقلاء محصورة في جلب النفع ودفع الضر، (واجتماع الخوف والطمع أدعى للطاعة)[2].

ونظيره قال سبحانه (**وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ** وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا) (فاطر45) ، ولذلك قيل (لولا عفو الله ورحمته وتجاوزه لما هنأ أحد بالعيش ، ولولا عقابه ووعيده وعذابه لاتكل كل واحد)[3].

قوله (وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ) (7) لا يزال الكافرون يطلبون الآيات الدالة على صدق النبي ﷺ ولا يكتفون بما يحيط بهم من آيات مفصلات ، إنما يطلبون أية من اختراعهم ، والقرآن لم يجبهم لطلباتهم ، لأنه كلما أجابهم لشيء لطلبوا مزيدا من المعجزات ، لأن الغرض ليس الاستفهام أو السؤال بل التعجيز والتحدي إلى ما ليس له نهاية ، قال الله (**وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ (14) لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ**) (الحجر15) .

قوله (..إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ..) (7) أمر الله نبيه بأن **لا ينشغل بسؤالهم** ،ولا يكلف نفسه ما لا يطيق ، ولينشغل برسالته ، فهو لهم نذير أي منذرهم عاقبة كفرهم وتكذيبهم ، وهو مرشدهم وهاديهم إلى طريق الحق ، فلا ينشغل بتوفيق الله لهم ، فتلك هداية تحصل لهم حين يأذن الله بهدايتهم

قوله (..وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ) (7) يستبين من أسلوب القصر المتقدم ذكره معنى (**لِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ**) أي حجة عليهم ، بعد أن أتم البلاغ والبيان والنذارة ، لأن (المقصود هو هداية **الدلالة وليس التوفيق** ، لأن هداية التوفيق لا يملكها إلا الله ، أما الأنبياء والدعاة فدورهم ينحصر في الإرشاد والبيان) [4].

والمراد بـ"القوم":"الأمة"، والمقصود من لفظ (هاد) ليس شخص واحد ، بل لكل قوم من يؤدي هذه الوظيفة حتى بعد وفاة النبي ﷺ ، قال رسول الله ﷺ لعلي بن أبي طالب (ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ **فَوَاللَّهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ**)[5]، فقوله لعلي رضي الله عنه ليس خاصا به بل هو لكل من تقلد وظيفته في الدعوة .

---

[1]) الكشاف ج6 ص 175
2) الشنقيطي : أضواء البيان ج2 ص 223
3) ذكره النحاس في معاني القرآن ج3 ص 473 وغيره ذكره السيوطي في الدر المنثور ج5 ص 475 ابن جرير عن ابن عباس مرفوعا ، والماوردي في النكت والعيوج 2 ص 299 عن سعيب ابن المسيب مرفوعا
[4]) الشيخ مصطفى العدوي : https://www.youtube.com/watch?v=K9vTadwSs7E
[5]) رواه البخاري ج10 ص 198 رقم 2787

قال الشنقيطي (أظهر الأقوال في هذه الآية الكريمة أن المراد "بالهادي": "الرسول"، كما يدل عليه قوله تعالى: (وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ) [يونس 47]، وقوله (**وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلا فِيهَا نَذِيرٌ**) [فاطر24]، وقوله (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً) [النحل36] .

وعَنْ عَلِيٍّ فِي قَوْلِهِ (إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ) قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (**الْمُنْذِرُ وَالْهَادِ** رَجُلٌ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ)[1]

قال ابن حجر (**واختلف أهل التأويل في تفسيرها بعد اتفاقهم على أن المراد بالمنذر محمد ﷺ** .

- فروى الطبري من طريق على بن أبي طلحة عن بن عباس في قوله "ولكل قوم هاد" أي داع
- ومن طريق قتادة مثله من طريق العوفي عن بن عباس قال "الهادي الله" وهذا بمعنى الذي قبله كأنه لحظ قوله تعالى والله يدعو إلى دار السلام ويهدي من يشاء
- ومن طريق أبي العالية قال "الهادي القائد" [2]
- ومن طريق مجاهد وقتادة أيضا "الهادي نبي" وهذا أخص من الذي قبله
- ويحمل القوم في الآية في هذه الأقوال على "العموم "
- ومن طريق عكرمة وأبي الضحى ومجاهد أيضا قال "الهادي محمد" وهذا أخص من الجميع)[3].

وما نرجحه هو ما أخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس – رضي الله عنهما – (ولكل قوم هاد) قال : "**داع**") [4] ، قال الشيخ عثمان الخميس ، (**والمعنى على عمومه ، فلكل زمان دعاة إلى الله يرشدون قومهم ، وما الإشارة لعلي في بعض الأحاديث إلا على سبيل المثال** ، أي أن صحت فالمعنى المقصود وعلى من شاكلته ، فإنه يهدون الناس ويبصرونهم آيات الله تعالى) [5].

---

[1]) رواه أحمد ج2 ص 306 رقم 1040 وإن كان ضعيف سندا
[2]) تفسير ابن كثير ج4 ص 434 من طريق أبو صالح ويحيى بن رافع وأبو عالية وانظر تفسير ابن أبي حاتم ج8 ص 500
[3]) فتح الباري لابن حجر ج8 ص 376
[4]) الدر المنثور ج5 ص 476 تفسير الطبري ج16 ص 353
[5]) youtube.com/watch?v=0rttHMFPGls

المحور الثاني

الأدلة على تدبير الله الكبير المتعال لشئون خلقه وحفظهم

قال تعالى (اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ (8) عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ (9) سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ (10) لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ) (11)

هنا يرسل الله لرسوله أية يتلوها على قومه حتى تشف ما في صدورهم من ريب ، وليعلموا أنه الحق من ربهم، فيسوق له آية ما في الأرحام ، وعلمه سبحانه بموعد ولادتها ، كما يسوق لهم آية بيولوجية أخرى وهي الدورة البيولوجية في الكائنات الحية ومعدل انخفاضها وارتفاعها بين الليل والنهار ، وذلك مع اختلاف طبائع الكائنات عن بعضها البعض ، ويسوق لهم آية غيبية وهي حفظ الله لعباده عن طريق الحفظة وهي ملائكة موكولة بدفع الضر عنهم ، ثم يختتم هذا المقطع من السورة ببيان أن نعم الله لا تزول عمن شكر الله وإذا أراد الله بقوم عقوبة فلا مرد له .

قوله (اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ) (8) قال ابن عباس (وما تغيض الأرحام **ما تنقص عن تسعة أشهر** ، وما تزداد وما تزيد عليها) [1] .

يقال (**غيض الماء**) يعني اضمحل وقل ونضب[2]، وفي الآية قال الزجاج (معناه ما نقَص الحَمْل عن تسعة أَشهر وما زاد على التسعة وقيل ما نقَص عن أَن يتم حتى يَموت وما زاد حتى يتمَّ الحمْل)[3].

فكلما زادت أيام وشهور الحمل ، فيزداد السائل الميوزي داخل الرحم ليحفظ الجنين ، فيزداد حجم الرحم ، والعكس صحيح فعندما يتدفق الماء من الرحم عند الولادة يقل ما بداخل الرحم ، وتلك علامة من علامات الولادة ، فإذا حانت ساعة الولادة يصير الرحم في حالة "الغيض" ، فإذا لم يحن الأجل يستمر الرحم في الزيادة في الحجم .

---

[1]) تفسير ابن أبي حاتم ج9 ص 1 ، الدر منثور للسيوطي ج5 ص 477 ، التفسير القيم لابن القيم ج1 ص 486
ووافقه على هذا أصحابه كمجاهد وسعيد ابن جبير.
[2]) الصحاح تاج اللغة ج3 ص 1096 الصحاح في اللغة ج2 ص 30 /
[3]) لسان العرب ج7 ص 201

قوله (..وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ) (8) عن قتادة في قوله " وكل شيء عنده بمقدار " أي بأجل ، حفظ أرزاق خلقه وآجالهم ، وجعل لذلك أجلاً معلوماً)[1]، قال البيضاوي (فإنه تعالى خص كل حادث بوقت وحال معينين ، وهيأ له أسباباً مسوقة إليه تقتضي ذلك) [2].

ويعني ذلك – بحسب السياق — على وجه الخصوص – أن أمور الحمل التي يشاهدها الزوجان ليس مجرد توقيتات تتغير بحسب الصدفة من زوجين لزوجين آخرين ، بل هي مواقيت مقدره في علم الله كما في قوله (إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ) [القمر 49] ، يقول رسول الله ﷺ (مَا مِنْ **نَسَمَةٍ كَائِنَةٍ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِلَّا وَهِيَ كَائِنَةٌ**)[3] يعني (ليست نسمة

1) الدر المنثور ج5 ص 478
2) تفسير البيضاوي ج3 ص 213
3) رواه البخاري ج8 ص 473 رقم 2356

كائنة في علم الله تعالى ومن حدوث المحدثات إلى يوم القيامة في حال من الأحوال إلا كائنة ثابتة في وقت من الأوقات)[1].

فالله سبحانه هو الذي يعلم الوقت المحدد لخروج الجنين الذي تحمله الأنثى فترة الحمل ثم تقذفه من رحمها عندما يأذن الله بذلك ، وقد جعل الله لكل أثنى فترة حمل تختلف عن الأخرى ، فواحدة تلد في الشهر السابع وأخرى في التاسع ، إما أوله أو وسطه أو آخر ، وساعة الولادة هذه تأتيها بغتة رغم تخمين الأطباء الموعد المتوقع لاولادة بناء على التصوير بالسونار ومدة أسابيع الحمل ، إلا أن الوقت المحدد بالضبط لحصول ذلك فهو في علم الله ، ولا أحد يستطيع أن يتكهن به ، فمن الذي قدر اكتمال الجنين عند هذت الوقت بالذات ؟ ومن الذي قدر اكتماله في المدة ، فلا تزيد عنها أو تقل ؟

قوله (عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ) (9) أي بالنظر في معجزة خلق الجنين الذي جنَّ عن الأعين وخرج من عالم الغيب إلى عالم الشهادة ، يرى العقلاء أن الله سبحانه عالم بكل ما غاب عن علم البشر ، وعالم بكل شيء شهدته أعينهم ، **فعلم الله وتقديره شامل لكل شيء حتى ما تحويه بطون زوجاتنا من نطفنا التي يُخَلِّقُها الله فتصير أولادا لنا** ، ونحن لا ندرك من علمه شيء .

يستبين من ذلك أن الله الكبير المتعال ، أكبر من أن يدركه بشر ، ومتعال عن كل شأن ، فعن عبد الله بن عمر قال : قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية وهو على المنبر (**والسموات مطويات بيمينه** سبحانه وتعالى عما يشركون) قال يقول الله **أنا الجبار أنا المتكبر أنا الملك أنا المتعال يمجد نفسه** قال فجعل رسول الله ﷺ يرددها **حتى رجف بها** المنبر حتى ظننا أنه سيخر به)[2]، فعلام إنكارهم لقدرة الكبير المتعال على البعث إلا إذا كان **هذا المنكر مختالا أو متكبرا** ، ف (بئس عبد تخيل واختال ونسي الكبير المتعال) .

قال صاحب الظلال (ولفظة "**الكبير**" ولفظة "**المتعال**" كلتاها تلقي ظلها في الحس ، ولكن يصعب تصوير ذلك الظل بألفاظ أخرى ، إنه ما من خلق حادث إلا وفيه نقص يصغره ، وما يقال عن خلق من خلق الله كبير ، أو أمر من الأمور كبير ، أو عمل من الأعمال كبير ، حتى يتضاءل بمجرد أن يُذكر الله "الكبير المتعال") [3].

قوله (سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ) (10) هذه الآية دليل على إحاطة الله تعالى بخلقه ، وسعة علمه ، وأنه لا يخفى عليه شيء ، لا ما أسرته النفس ولا ما جهرت به ، فكل ذلك الله سبحانه يعلمه ، ويعلم حقيقة ما في النفوس ، وما جهرت به من القول ، فيعلم صدقه وكذبه .

---

[1]) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ج10 ص 131
[2]) رواه أحمد بن حنبل ج2 ص 87 رقم 5608
[3]) في ظلال القرآن ج4 ص 356

(فالله جل وعلا لا يخفى عليه شيء على كثرة العباد، وتفرُّقهم في الأرض، واختلاف أمكنتهم، وتبايُن ما بينهم وخفاء أعمالِهم فإنّ الله جل وعلا يعلمُها) [1](يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى)

قوله (..وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ) (10) كذلك الحركة فإنه سبحانه يعلم كل حركة في الكون سواء أكانت ليلا أو نهارا ، فالمستخفي هو الذي يحاول أن يختفي عن الأعين فيستتر عنها ، لكنه لا يخفى عن الله ، ولذلك سمي مستخفيا ، وليس بخفي .

فعَنْ مُجَاهِدٍ فِي قَوْلِهِ: " وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ" قَالَ: "رَاكِبٌ رَأْسَهُ بِالْمَعَاصِي"[2]، أي يظن أن لن يراه أحد وهو يعصي الله تعالى ، قال تعالى (يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا (النساء108)

كذلك المعنى يطول الحيوانات والطيور التي تأوي إلى بيوتها ، فتتوارى عن الأعين حتى تستريح وتسترخي لتعاود نشاطها بالنهار ، ومن الحيوانات ما قد يبرز ليصطاد بالليل أو يقتات ومن الناس من يعمل ، فهو يعمل أو يصطاد في هدوء وكأنه مستخف حتى ينجز مهمته ، كل أولئك الله سبحانه يعلم أعمالهم ، وما أصابوه .

والسارب بالنهار هو الظاهر للعيان ، يسير بينهم ، قال الزجاج أي (ظاهرٌ بالنهارِ في سِرْبِه)[3] ، قال الجوهري "السارب" : (الذاهب على وجهه في الارض)[4].

والمعنى كذلك يستطيل ليشمل من يتظاهر أمام الناس بخلاف ما كان يستخفي به في الليل ، فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَوْلُهُ:" " وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ " .قَالَ: (إِذَا خَرَجَ بِالنَّهَارِ أَرَى النَّاسَ أَنَّهُ بَرِيءٌ مِنَ الإِثْمِ)[5]

1) الشيخ صالح بن فوزان الفوزان /:إعانة المستفيد بشرح كتاب التوحيد – ج4 ص 83
[2]) تفسير ابن أبي حاتم ج9 ص 5
[3]) لسان العرب ج1 ص 462
[4]) الجوهري : الصحاح تاج اللغة ص 146
[5]) تفسير ابن أبي حاتم ج9 ص 6

كل أولئك لا يخفى على الله منهم شيء ، فعن الحسن – رضي الله عنه – في الآية قال (**يعلم من السر ما يعلم من العلانية ، ويعلم من العلانية ما يعلم من السر** ، ويعلم من الليل ما يعلم من النهار ، ويعلم من النهار ما يعلم من الليل)[1] .

فهذه الآية لاستهلال الحديث عن المشكلات النفسية التي تعتري الإنسان ، عندما يشعر بالخوف أو بالضيق أحيانا ، ومحاولاته البائسة لتغيير حاله إلى حال أفضل ، بالاستعانة بالأسباب المادية ولا يستعين بخالق هذه الأسباب.

قوله (لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ ..) قال ابن كثير أي: (**للعبد ملائكة يتعاقبون عليه**، حَرَس بالليل وحَرَس بالنهار، **يحفظونه من الأسواء والحادثات**، كما يتعاقب ملائكة **آخرون لحفظ الأعمال** من خير أو شر، ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، فاثنان عن اليمين وعن الشمال يكتبان الأعمال، صاحب اليمين يكتب الحسنات، وصاحب الشمال يكتب السيئات، وملكان آخران يحفظانه ويحرسانه، واحدا من ورائه وآخر من قدامه)[2].

قال رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَ (يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلَائِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلَائِكَةٌ بِالنَّهَارِ وَيَجْتَمِعُونَ فِي صَلَاةِ الْفَجْرِ وَصَلَاةِ الْعَصْرِ ثُمَّ يَعْرُجُ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ فَيَسْأَلُهُمْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِمْ كَيْفَ **تَرَكْتُمْ عِبَادِي** ؟ فَيَقُولُونَ تَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ وَأَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ)[3].

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ " لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ " ، قَالَ: (هُمُ الْمَلائِكَةُ تُعَقِّبُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ **تَكْتُبُ عَمَلَ ابْنِ آدَمَ**")[4] .

وعن أبي أمامة (**وَكِّل بالمؤمن تسعون ومئة ملك يذبون عنه ما لم يقدر عليه** من ذلك النفر تسعة أملاك يذبون عنه كما يذب عن قصعة العسل من الذباب في اليوم الصائف وما لو بدا لكم لرأيتموه على جبل وسهل كلهم باسط يديه فاعرفاه وما لو **وُكِّل العبد فيه إلا نفسه طرفة عين خطفته الشياطين**)[5].

من ذلك نفهم أن الله تعالى يحفظ عباده ، ويحفظه لهم يخلق توازنا بين الخير والشر ، ليظل الابتلاء بين أهليهما قائم في الدنيا ، كما في قوله (وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ)(الأنبياء35) ، فللخير أهل وللشر أهل ، وليس في الكون شر مطلق ولا خير مطلق ، (وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ) ، من هنا تتحقق الحكمة من الابتلاء ، (وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا) (الزخرف32)، فإذا ترك الشر ليغلب الخير مطلقا ، فعم الشر هلكوا جميعا ، ولكن الله يدفع الباطل بأهل الحق (وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ) (251) ، وإذا ترك الخير أن يغلب الشر فاضمحل الشر وأضحى غير موجودٍ في الدنيا هنا لا يتحقق الابتلاء الذي هو سبب الحياة الدنيا ، كما في قوله (الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا) (تبارك 2) .

---

[1]) تفسير ابن أبي حاتم ج9 ص 5 ، الدر المنثور ج5 ص 479
[2]) تفسير ابن كثير ج4 ص 437
[3]) رواه البخاري ج2 ص 390 رقم 522
[4]) تفسير ابن أبي حاتم ج9 ص 7
[5]) رواه الطبراني : المعجم الكبير ج8 ص 167 رقم 7720 (ضعيف) لكن معناه موافق للآية

قوله (..مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ..) قال ابن عاشور وغيره أنه كناية عن الإحاطة ، فهو تعبير (مستعمل في معنى الإحاطة من الجهات كلها)[1]، كما في قوله (فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً) قال ابن جزي والمعنى أن الله يسلك من بين يدي الرسل ومن خلفه ملائكة يكونون رصداً يحفظونه من الشياطين)[2]

قوله (يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ) يعني (يحفظونه بأمر الله، فإذا جاء قَدَرُ الله تَخَلَّوا عنه) [3]، فهذا الحفظ داخل في أمر الله وقدره الكوني إلى أن يقدر الله غير ذلك ، أخرج أبو الشيخ عن ابن عباس – رضي الله عنهما – في قوله (يحفظونه من أمر الله) قال : (**ذلك الحفظ من أمر الله بأمر الله**)[4].

فجملة (يحفظونه) أي الملائكة تقوم بفعل الحفظ بأمر الله ، وجملة (من أمر الله) أي أن هذا الحفظ الذي تقوم به الملائكة داخل في جملة قضاء الله وقدره ، **فالحافظ على الحقيقة هو الله** ، فالله خير حافظا .

وعن ابن عباس – رضي الله عنهما – في قوله (له معقبات) قال : الملائكة (يحفظونه من أمر الله) قال : بإذن الله)[5] ، وأخرج ابن جرير عن سعيد بن جبير – رضي الله عنه – في قوله (له معقبات) قال : الملائكة (يحفظونه من أمر الله) قال : حفظهم إياه بأمر الله)[6] .

قال الغنيمان (فالملائكة تتعاقب عليه لتحفظه، فلو نام إنسان في البر بقي فمه مفتوحاً وأذنه مفتوحة، فتأتيه الهوام فيصدها الملائكة الذين يحفظونه فلا يدخل في فمه، ولا في منخره، ولا في أذنه شيء، فيحفظه الله بالملائكة، فإذا جاء القدر تخلوا عنه وتركوه، وسلموه لما قدره الله جل وعلا ، ومنهم الذين يحفظون أعماله، ويسجلون عليه كل ما نطق وتكلم به)[7]

قال الماوردي ففي تأويل قوله تعالى (يحفظونه من أمر الله) وجهان :-

أحدهما : يحفظونه من **الموت** ما لم يأت أجله ، قاله الضحاك .

الثاني : يحفظونه **من الجن والهوام المؤذية** ما لم يأت قدر ، قاله أبو مالك وكعب الأحبار .

فعلى هذا يكون تأويل قوله تعالى (يحفظونه من أمر الله) علي ثلاثة أوجه [8]:-

أحدها : يحفظونه **بأمر الله** ، قاله مجاهد .

الثاني : يحفظونه **من أمر الله حتى يأتي أمر الله** ، وهو محكي عن ابن عباس.

---

[1]) التحرير والتنوير ج12 ص 153
[2]) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي ج1 ص 2493
[3]) إتحاف السائل بما في الطحاوي من مسائل شرحها الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ درس 41 مفرغ ص1
4) انظر الدر المنثور للسيوطي ج5 ص 481 ، فتح القدير للشوكاني ج4 ص 95 ، وأخرجه ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم .
[5]) الدر المنثور ج5 ص 481
[6]) الدر المنصور ج5 ص 481 وتفسير الطبري ج16 ص 375
[7]) الغنيمان : شرح الفتح المجيد شرح كتاب التوحيد درس 139 ص 11 تفريغ الشبكة الإسلامية
[8]) النكت والعيون ج2 ص 302

الثالث : أن في الآية تقدير وتأخير ، و تقديره : له معقبات من أمر الله تعالى يحفظونه من بين يديه ومن خلفه

قوله (..إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ..) (11) قال الواحدي (لا يسلب قوماً نعمةً حتى يعملوا **بمعاصيه**)[1] ، وقال الشنقيطي والمعنى: (أنه **لا يسلب قوماً نعمة** أنعمها عليهم، حتى يغيروا ما كانوا عليه من **الطاعة** والعمل الصالح)[2]، فكلاهما يرددان ذات المعنى ، ولكن الشنقيطي ركز على أن سبب التغيير هو ترك الطاعة ، والواحدي ذكر أن سبب التغيير هو العمل بالمعصية ، وكلاهما واحد .

والثبات علي الحق يكون بالتوفيق من الله ، وقد كان النبي ﷺ يستعيذ بالله من غضبه وزوال نعمته ، فعن عبد الله بن عمر قال : كان من دعاء رسول الله ﷺ **اللهم إني أعوذ بك من زوال نعمتك وتحول عافيتك وفجأة نقمتك وجميع سخطك**)[3] ، قال الشاعر : "إذا لم يكن عون من الله للفتى ... فأول ما يجنى عليه اجتهاده".

قال ابن القيم (ومن تأمل ما قص الله تعالى في كتابه من أحوال الأمم الذين أزال نعمه عنهم وجد سبب ذلك جميعه إنما هو مخالفة أمره وعصيان رسله ، وكذلك من نظر في أحوال أهل عصره وما أزال الله عنهم من نعمه وجد ذلك كله من سوء عواقب الذنوب ، **فما حفظت نعمة الله بشيء قط مثل طاعته** ولا حصلت فيها الزيادة بمثل شكره **ولا زالت عن العبد بمثل معصيته** لربه ، فإنها نار النعم التي تعمل فيها كما تعمل النار في الحطب اليابس) [4]

قال الشاعر : إذا كنت في نعمة فارعها ... فإن **المعاصي تزيل النعم** .

وعَنْ إِبْرَاهِيمَ النخعي التابعي في تفسيره لقوله "إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ[5] قال "أَوْحَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى نَبِيٍّ مِنْ أَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ قُلْ لِقَوْمِكَ: إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِ قَرْيَةٍ وَلا أَهْلِ بَيْتٍ **يَكُونُونَ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ فَيَتَحَوَّلُونَ مِنْهَا إِلَى مَعْصِيَةِ اللَّهِ** إِلا تَحَوَّلَ اللَّهُ مِمَّا يُحِبُّونَ إِلَى مَا يَكْرَهُونَ).

فمشيئة الله تبع لحال القوم من أنفسهم ، (قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها) ، أي (تجري وتنفذ من خلال حركة هؤلاء القوم بأنفسهم ، وتغيير اتجاهها وسلوكها تغييراً شعورياً وعملياً ، فإذا غير القوم ما بأنفسهم اتجاهاً وعملاً غير الله حالهم وفق ما غيروا هم من أنفسهم . .)[6]، وهو ما يعني أن الذين يريدون تغيير حياتهم للأفضل عليهم أن يجتهدوا في العمل لذلك والدعاء والاستعانة بالله ليغير الله حالهم لخير حال ، (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ) (العنكبوت 69) ، والعكس كذلك صحيح فالذين يعيشون في نعمة الله ، إذا لم يشكروا الله على هذه النعم فإنها تزول كعقوبة من الله لهم .

---

[1]) الوجيز للواحدي ج1 ص 380
[2]) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ج2 ص 236
[3]) الأدب المفرد ج1 ص 238 رقم 685
[4]) التفسير القيم لابن القيم ج2 ص 263
[5]) تفسير ابن أبي حاتم ج9 ص 13
[6]) في ظلال القرآن ج4 ص 380

قوله (..وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ..) (11) إرادة السوء إذا ما نسبت لله فهي بمعنى **إرادة الخير العام بإنزال سوء خاص** ، فهي وإن كانت شرا لمن أريد إنزاله به ، فإنها من وجه آخر تحقق الصالح العام أو الخير للعامة ، فالسوء قد يكون خيرا أو شرا ، وليس بشرط أن يكون شرا محضا .

والعلماء فسروا السوء في هذا السياق بأنه (**العذاب والهلاك**)[1] ، **والمخاطب** بالسوء الذين **يجادولون** النبي ﷺ في الآيات ، (يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ) (النحل 83) ، فهؤلاء الذين سألوا الله الآيات في قوله (وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ) (الرعد7) فهم الذين أراد الله بهم سوء ، ، **فأتاهم الجدل ومنعهم العمل ، فأهلكوا بكثرة جدالهم**

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ يَعْنِي قَوْلَهُ " وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلا مَرَدَّ لَهُ " ، قَالَ: فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ لَمْ يُغْنِ الْمُلُوكَ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْحَرَسَ مِنْهُ شَيْئًا"[2]، قال الألوسي (إذ الكل تحت قهره سبحانه)[3] ، والهلاك هنا ليس بشر محض ، بل هو **خير لمنع استفحال الشر** .

من هنا فرق العلماء بين الإرادة الكونية ، والمشيئة الشرعية لله تعالى ، فقالوا (في الإرادة الكونية هي المشيئة التي لابد فيها من وقوع وتحقق ما تعلق بها من مراد الله ..

قال القشيري (يقال إذا أراد اللَّهِ بقومٍ بلاءً وفتنة فما تعلَّقَتْ به المشيئة لا محالة يجري) [4].

قال الشاعر :- إلى حَتْفِي مَشَى قدمي ... ... إذا قَدَمِي أراق دمي .

.. ولا تلازم بين هذه الإرادة ومحبة الله وأمره الشرعي، فقد يريد الله ويشاء وقوع شيء يكرهه لحكمة يعلمها وبأسباب من خلقه أنفسهم كوقوع الزنا والكذب والكفر والله تعالى لا يحب ذلك ولا يأمر به شرعاً ،وإنما نهى عنه لكنه يقع بإذنه ومشيئته ، يقول تعالى (وَلَوْ شَاء رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ) ، وقوله (**وَلاَ يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ**) ، (فالله أراد غوايتهم مع أنه لم يأمر بها ولم يحبها ، لكن ما كل ما أراده الله وأحبه وأمر به شرعاً يقع ولاكل ما كرهه ونهى عنه لايقع)[5] .

---

[1])عبد الله بن أحمد بن علي : مختصر تفسير البغوي ج4 ص 224
[2]) تفسير ابن أبي حاتم ج9 ص 13
[3]) تفسير الألوسي ج9 ص 247
[4]) تفسير القشيري ج3 ص 493
[5]) ملتقى أهل التفسير ج1 ص 1059 ، وانظر كذلك مجموع الفتاوى لابن تيمية ج11 ص 267

المحور الثالث

دلالات "البرق والرعد والظل وماء المطر" على الله الواحد القهار

قال تعالى (هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ (12) وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ (13) لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (14) وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (15) قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (16) أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ (17)

والبرق والرعد آيتان من آيات الله تعالى يخوف بهما عباده تحملاهم قسرا على التفكر في **الله الكبير المتعال** ، فينتهون عن مجادلة النبي ﷺ في طلب الآيات والمعجزات المادية ، فآيتي البرق والرعد **كافيتان** ، وكلاهما مخلوقتان من مخلوقات الله ، فطريق الحق جلي واضح ، وطريق الباطل سراب .

ومن يتأمل الكون يجده يسير بقوانين ربانية ثابتة ، **فالكون مأسور بتلك القوانين** ، **خاضع لقوة الله القهار** ، لكن الذين يرتكنون لغير الله تعالى يعمون أنفسهم عن إدراك ذلك ، فيسيرون في الظلمات ويتركون النور ، **فتلتبس عليهم قوى البشر فيضاهون بها قوة الله** ، متجاهلين أن قوة البشر هي من خلق الله

والناس إزاء قدرة الله وآياته العظيمة على **صنفين** ، أحدهما **ينتفع** بتلك الأيات ويمسكها، والآخر تمر عليه **دون أن ينتفع بها** ، فالعبرة بالقلب الذي يستقبل الآيات ، فقد ينكرها رغم مرورها وتكرار مشاهدتع لها بعين البصر وليس البصيرة ، فهي آيات لو كذب بها المكذبون .

قوله (هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا ..) (12) حاول البعض تفسير ظاهرة البرق تفسيرا علميا ، فقال الرازي (اعلم أن حدوث البرق دليل عجيب على قدرة الله تعالى ، وبيانه أن السحاب لا شك أنه جسم مركب في **أجزاء رطبة مائية** ، **ومن أجزاء هوائية ونارية** ، ولا شك أن الغالب عليه الأجزاء المائية ، والماء جسم بارد رطب ، والنار جسم يابس ، وظهور الضد من الضد التام على خلاف العقل ، فلا بد من صانع مختار **يظهر الضد من الضد**)[1].

[1]) مفاتيح الغيب 20/19

وعَنْ مُجَاهِدٍ : (أَنَّ **الرَّعْدَ مَلَكٌ وَالْبَرْقَ أَجْنِحَتُهُ يَسُوقُ بِهَا السَّحَابَ** ، وَعَلَى هَذَا الْمَسْمُوعُ صَوْتُهُ أَوْ صَوْتُ سَوْقِهِ عَلَى اخْتِلَافٍ فِيهِ ، وَإِطْلَاقُ ذَلِكَ عَلَى الرَّعْدِ مَجَازٌ ، وَلَا عِبْرَةَ بِقَوْلِ الْفَلْسَفِيِّ : الرَّعْدُ صَوْتُ اصْطِكَاكِ أَجْرَامِ السَّحَابِ ، وَالْبَرْقُ مَا يَنْقَدِحُ مِنْ اصْطِكَاكِهَا)[1]

قال الشاعر في نونية القحطاني :-

من قال إن الغيث جاء بهنعة ... أو صرفة أو كوكب الميزان
فقد افترا إثما وبهتانا ولم ... ينزل به الرحمن من سلطان
وكذا الطبيعة للشريعة ضدها ... ولقل ما يتجمع الضدان
وإذا طلبت طبائعا مستسلما ... فاطلب شواظ النار في الغدران
علم الفلاسفة الغواة طبيعة ... ومعاد أرواح بلا أبدان
لولا الطبيعة عندهم وفعالها ... لم يمش فوق الأرض من حيوان
والبحر عنصر كل ماء عندهم ... والشمس أول عنصر النيران
والغيث أبخرة تصاعد كلما ... دامت بهطل الوابل الهتان
والرعد عند الفيلسوف بزعمه ... صوت اصطكاك السحب في الأعنان
والبرق عندهم شواظ خارج ... بين السحاب يضيء في الأحيان
كذب أرسطاليسهم في قوله ... هذا وأسرف أيما هذيان
الغيث يفرغ في السحاب من السما ... ويكيله ميكال بالميزان
لا قطرة إلا وينزل نحوها ... ملك إلى الآكام والفيضان
والرعد صيحة مالك وهو اسمه ... يزجي السحاب كسائق الأظعان
والبرق شوظ النار يزجرها به ... زجر الحداة العيس بالقضبان
أفكان يعلم ذا أرسطاليسهم ... تدبير ما انفردت به الجهتان
أم غاب تحت الأرض أم صعد السما ... فرأى بها الملكوت رأي عيان
أم كان دبر ليلها ونهارها ... أم كان يعلم كيف يختلفان
أم سار بطلموس بين نجومها ... حتى رأى السيار والمتواني
أم كان أطلع شمسها وهلالها ... أم هل تبصر كيف يعتقبان[2]

[1]) مغني المحتاج للخطيب الشربيني ج4 ص 182 نقلا عن الشافعي في كتابه الأم
[2]) نونية القحطاني : أبي محمد عبد الله بن محمد الأندلسي ، مكبة السوادي للتوزيع بجدة 1995 طبعة 3

فعند حدوث البرق تتضارب المشاعر الإنسانية بين الخوف والطمع ، يقول الله تعالى (وَمِنْ آيَاتِهِ **يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا**) (الروم 24) فيظهر الخوف من قوته المدمرة التي تدل عليها إضاءته العالية فالإنسان حين يرى البرق يطلع من خلاله على القدرة المطلقة لله رب العالمين فينتابه شعور بالخوف من أن يصيبه عذاب ربه ، وكذلك يظهر الطمع في رحمة الله به ، بنزول المطر الذي يتبعه ،(والناس تخاف من البرق وفي ذات الوقت تطمع فيه ، لأن البرق قد يكون نذيرا بسيل مدمر ، لكن مع هذا الخوف هناك طمع في الخير من وراءه ، فقد يعقبه المطر المدرار الذي يحيي الأرض بعد موتها ويجري الأنهار)[1]، (فالصواعق تقع مع أول برقة ولا يحصل المطر إلا بعد توالي البرقات)[2].

فقد خلق الله تلك الآيات لتكون حجة على المجادلين ، **فالبرق آية لمن يرى وإن لم يسمع ، والرعد آية لمن يسمع وإن لم ير** ، وهم يرون البرق أولا ثم يسمعون الرعد بعده رغم أنهما ينشآن في ذات اللحظة من تفريغ الشحنة الكهربائية من السحب الثقال ، ذلك أن الضوء أسرع من الصوت .

وفي شرح مشاعر الإنسان المتعارضة –أي الخوف والطمع – إزاء هذه الآية – أي البرق – أدلى كل بدلوه ، وجميعهم أصابوا معاني متقاربة كل بحسب الحال الذي تفكر فيه وتدبر

فعن قتادة – في قوله (هو الذي يريكم البرق خوفاً وطمعاً) قال : **خوفاً للمسافر** ، يخاف أذاه ومشقته (**وطمعاً للمقيم**) [3]، فيطمع في رزق الله ويرجو بركة المطر ومنفعته .

وعن الحسن قال (**خوفاً لأهل البحر**) (وطمعاً لأهل البر) .

وعن الضحاك قوله (يريكم البرق خوفاً وطمعاً) قال (**الخوف** :ما يخاف **من الصواعق ، والطمع : الغيث**)[4].

قوله (..وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ) (12) السحاب الثقال يخزن كمية هائلة من المطر ، حيث تحتوي السحب الثقيلة أو السحب الركامية على كميات ضخمة من الماء، يمكن أن تصل إلى ملايين الأطنان في سحابة عاصفة واحدة، **متوسط وزن سحابة الركام يمكن أن يكون أكثر من 2 مليار رطل، أي ما يعادل حوالي 110 ألف طن من الماء** ، وليس مجرد بخار الماء .

فسبحان الله الذي أنزل ماء المطر مقطرا قطرة قطرة من هذه السحب الضخمة الهائلة ، فلو نزل مرة واحدة لدمر الأرض وما عليها ، ولكنه بعباده لطيف ، فالمطر أية لمن لا يسمع ولا يبصر ، كما في قوله تعالى: (حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ) [الأعراف: 57] [5].

---

[1]) شريف سلامة أبو مريفة : سلسلة أهل الذكر : وزارة الأوقاف بالمملكة العربية السعودية ج1 ص 100
[2]) فهد بن عبد الله الحبيشي : ري الظمآن في بيان القرآن ج1 ص 50
[3] العظمة لأبي الشيخ ج4 ص 1283 عن سفيان الثوري
[4]) الدر المنثور ج5 ص 486 ، ابن الجوزي : زاد المسير ج4 ص 313
[5]) أضواء البيان ج5 ص 328

(متوسط وزن السحابة الواحدة يمكن أن يبلغ حوالي ٥٠٠ ألف كيلوجرام (حوالي ٥٠٠ طنّ

فالذي خلق هذه السحب وأنزل منها الماء بتلك الكيفية قادر على أن يخلق عباده من قبورهم مرة أخرى

قوله (وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ ..) (13) عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ أَقْبَلَتْ يَهُودُ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى ﷺ فَقَالُوا يَا أَبَا الْقَاسِمِ أَخْبِرْنَا عَنْ الرَّعْدِ مَا هُوَ قَالَ **مَلَكٌ مِنْ الْمَلَائِكَةِ مُوَكَّلٌ بِالسَّحَابِ مَعَهُ مَخَارِيقُ مِنْ نَارٍ يَسُوقُ بِهَا السَّحَابَ حَيْثُ شَاءَ اللَّهُ** فَقَالُوا فَمَا هَذَا الصَّوْتُ الَّذِي نَسْمَعُ ؟ قَالَ **زَجْرُهُ بِالسَّحَابِ إِذَا زَجَرَهُ** حَتَّى يَنْتَهِيَ إِلَى حَيْثُ أُمِرَ قَالُوا صَدَقْتَ)[1]، وهكذا يخلق الله **ملائكة تزجر السحاب** وتسيره **وتسوقه حيث أمر الله** ، وبذلك يبدو تدبير الله لأحد مظاهر الكون وفقا لحكمته سبحانه .

فالرعد مخلوق خلقه الله يشارك طائفة الذين يسبحون بحمد الله سبحانه ، وكذلك الملائكة ، ونظيره قوله (فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا **فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ** وَهُمْ لا يَسْأَمُونَ) قال الشنقيطي وقد دلت هذه الآية الكريمة من سورة فصلت على أمرين : –

أحدهما: أن الله جل وعلا إن كفر به بعض خلقه، فإن بعضا آخر من خلقه يؤمنون به، ويطيعونه كما ينبغي، ويلازمون طاعته دائما بالليل والنهار ، كما في قوله (**فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلاءِ فَقَدْ وَكَّلْنا بِهَا قَوْما لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ**) [الأنعام:89] .

والثاني : أن الملائكة يسبحون الله ويطيعونه دائما لا يفترون عن ذلك ، كقوله (وَلَهُ مَنْ فِي السَّماوَاتِ وَالْأَرْضِ **وَمَنْ عِنْدَهُ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلا يَسْتَحْسِرُونَ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ لا يَفْتُرُونَ**) [الأنبياء:19-20], وقوله: (إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ) [الأعراف:206][2].

قوله (..وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ ..) (13) حيث يُمكن أن تُنتج **صاعقة البرق الواحدة طاقة تُقدر بالمليارات من الجولات**، وهو ما يكفي لتشغيل مصابيح كهربائية عديدة بقوة 100 واط لأشهر .فعلى سبيل المثال، يمكن لصاعقة أن تولد 5 مليارات جول من الطاقة أو 1.21 جيجاوات .

[1]) رواه الترمذي ج10 ص 387 رقم 3042 وصححه الألباني : صحيح وضعيف سنن الترمذي ج7 ص 117 رقم 2117
[2]) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ج7 ص 30

وقد يجعل الله الصواعق المرسلة عقوبة لمن يجدال مع النبي ﷺ في الله ، وليس أدل علي ذلك من إرسال الله الصواعق لقوم ثمود ، قال تعالى (وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ (43) **فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ**) (الذاريات 44) ،وقال تعالى (**فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ**) (فصلت 13).

قوله (.. وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ ..) (13) أي لا يزالون يجادلون في حق الله تعالى عليهم ، بعدما رأوا الآيات بأعينهم ، فكان من المفترض أن يؤمنوا وينتهوا عن الجدال ولكنه ظلوا على هذا الحال من المجادلة بالباطل ، فعَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (**إِنَّ أَبْغَضَ الرِّجَالِ إِلَى اللَّهِ الْأَلَدُّ الْخَصِمُ**)[1] ، قال السيوطي أَيْ (الشَّدِيد الْخُصُومَة وَاللَّدَد الْخُصُومَة الشَّدِيدَة) ، قال السدي (الخصومة بالباطل) [2]

قال ابن حجر (قيل في قوله "لدا" يعني "عوجا" ، وقوله "أدا" يعني "عوجا" ، وقال لا أعلم لهذا في هذه الترجمة وجها ‘لا إن كان أراد أن الألد مشتق من اللدد وهو الاعوجاج والانحراف عن الحق ، وأصله من اللديد وهو جانب الوادي ..)[3]

وقال ابن قتيبة رجل ألد بين اللدد وقوم لد ، قال الزجاج واشتقاقه من لديدي العنق وهما صفحتا العنق، وتأويله أن خصمه من أي وجه أخذ عن يمين أو شمال من أبواب الخصومة غلبه في ذلك) [4]

وقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (**مَا ضَلَّ قَوْمٌ بَعْدَ هُدًى كَانُوا عَلَيْهِ إِلَّا أُوتُوا الْجَدَلَ** ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ (بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ)[5]، (والمعنى ما كان ضلالتهم ووقوعهم في الكفر إلا بسبب الجدال ، وهو الخصومة بالباطل مع نبيهم وطلب المعجزة منه عنادا أو جحودا)[6]، يقول الإمام الأوزاعي"إذا أراد الله بقوم شراً ألزمهم الجدل ومنعهم العمل" [7].

قوله (.. وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ) (13) يعني (المكَايَدَةِ أَوِ القُوَّةِ أَوِ العُقُوبَةِ)[8] والضمير عائد على الله ، أي في مقابلة خصومتهم وجدالهم فإن الله يكيد لهم كما يكيدون للمؤمنين كما في قوله (**إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا * وَأَكِيدُ كَيْدًا**) (الطارق

---

1) رواه البخاري ج8 ص 336 رقم 2277
2) حاشية السيوطي والسندي على سنن النسائي ج7 ص 132 رقم 5328
3) فتح الباري لابن حجر ج123 ص 180
4) ابن الجوزي : كشف المشكل من حديث الصحيحين ج1 ص 1226
5) رواه ابن ماجة ج1 ص 55 رقم 47 وحسنه الألباني : صحيح كنوز السنة النبوية ج1 ص 127 صحيح ابن ماجة ج1 ص 14 رقم 45
6) تحفة الأحوذي ج9 ص 93
7) أبو الفضل المقرئ : أحاديث في ذم الكلا وأهله ج5 ص 125 ، اعتقاد أهل السنة للالكائي ج1 ص 145 ، وجاء معناها أيضاً عن الإمام مالك، ومعروف الكرخي، وعمر بن عبد العزيز
8) أيسر التفاسير لأسعد حومد ج1 ص 1721

15-16) ، يقول ابن جزي (**والمحال مشتق من الحيلة** ، فالميم زائدة ، ووزنه مفعل ، وقيل : معناه شديد المكر)[1] ، قال الزمخشري (والمعنى أنه شديد المكر والكيد لأعدائه ، يأتيهم بالهلكة من حيث لا يحتسبون)[2].

يستبين من ذلك أن الله تعالى يمكر بالمجادلين ويريد السوء بهم كما تقدم ، ولكن –سبحانه– قبل ذلك **ينذرهم** بالبرق والرعد **ويبشرهم** بالمطر ، فإن أبوا فإنه **يعاقبهم** بالصواعق .

قوله (لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ) أسلوب قصر بتقديم الخبر شبه الجملة على المبتدأ ، قال ابن جزي (والمعنى أن دعوة العباد بالحق لله ، ودعوتهم بالباطل لغيره)[3] ، فالغرض من هذا الأسلوب التوكيد والتخصيص بأن "لله وحده دعوة الحق"، لا يُشاركه فيها ولا يستحقها أحدٌ سواه ، فمن دعا غير الله فدعوته باطلة ، فلا خاب ولا خسر أهل دعوة الحق ، وخاب وخسر كل من دعا غير الله ،وقال(ضلّ من تدعون إلا إياه) [الإسراء : 67] ، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَنْ مَاتَ يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا دَخَلَ النَّارَ وَقُلْتُ أَنَا مَنْ مَاتَ لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ)[4].

وهذا يعني أنه تعالى **صاحب دعوة الحق لذاته وصفاته** ، وإن لم يوجب لداعيه بها ثوابا –وإنه قد أوجب ووعد– فإنه يستحقها لذاته ، فهو أهل أن يُعبد وحده ويُدعى وحده ويُقصد ويُشكر ويُحمد ويُحب ويُرجى ويُخاف منه ويُتوكل عليه ويُستعان به ويُستجار به ويُلجأ إليه ويُصمد إليه ، فتكون الدعوة الإلهية الحق له وحده ، ومن قام بقلبه ..معرفة وذوقا وحالا صح له مقام التبتل والتجريد المحض .

وهو ما يقربنا من فهم معنى التجرد في الدعوة لله تعالى بحق ، ويقربنا لفهم الإخلاص والتوحيد ، وهو ما فسره ابن القيم فقال (**التجرد لله تعالى من كل الشواغل** ، أي التبتل ، أي التجريد المحض)[5]، ومراده بالتجريد المحض : (**التبتل عن ملاحظة الأعواض** ، بحيث لا يكون المتبتل كالأجير الذي لا يخدم إلا لأجل الأجرة ، فإذا أخذها انصرف عن باب المستأجر ، بخلاف العبد فإنه يخدم بمقتضى عبوديته لا للأجرة ، فهو لا ينصرف عن باب سيده إلا إذا كان آبقا ، والآبق قد خرج من شرف العبودية ولم يحصل له إطلاق الحرية..)[6].

إذن مقام التبتل وأعلى من مقام التجرد عن الشواغل لأن (التبتل يجمع أمرين : اتصالا وانفصالا لا يصح إلا بهما:–

فالانفصال : انقطاع قلبه عن **حظوظ النفس المزاحمة لمراد الرب منه** وعن التفات قلبه إلى ما سوى الله خوفا منه أو رغبة فيه أو مبالاة به أو فكرا فيه بحيث يشغل قلبه عن الله

---

[1]) التسهيل لعلوم التنزيل ج1 ص 763
[2]) الكشاف ج3 ص 238
[3]) التسهيل لعلوم التنزيل ج1 ص 764
[4]) رواه البخاري ج4 ص 458 رقم 1162
[5]) التفسير القيم لابن القيم ج2 ص 208
[6]) مدارج السالكين ج2 ص 29

والاتصال : لا يصح إلا بعد هذا الانفصال وهو **اتصال القلب بالله** وإقباله عليه وإقامة وجهه له حبا وخوفا ورجاء وإنابة وتوكلا)[1].

فالتجرد خطوة البداية، والتبتل هو كمال الإخلاص لله .

ووفقا للمفهوم المتقدم أجمل السلف معنى "دعوة الحق" بأنها التوحيد لله والإخلاص له ، فقال علي رضى الله عنه دعوة الحق : "التوحيد" ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما (شهادة أن لا إله إلا الله) ، وقيل : (الدعاء بالإخلاص ، والدعاء الخالص لا يكون إلا لله وحده ودعوة الحق دعوة الإلهية وحقوقها وتجريدها وإخلاصها)[2].

قال الماوردي قوله عز وجل (له دعوة الحق) فيه ثلاثة تأويلات :

أحدها : أن دعوة الحق لا إله إلا الله ، قاله ابن عباس .

الثاني : أنه الله تعالى هو الحق ، فدعاؤه دعوة الحق .

الثالث : أن الإخلاص في الدعاء هي دعوة الحق ، قاله بعض المتأخرين .

ويحتمل قولاً رابعاً : أن دعوة الحق دعاؤه عند الخوف لأنه لا يدعى في حال الخوف إلا إياه ، كما قال تعالى فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ)(العنكبوت65) ، فهو أشبه بسياق الآية لأنه قال :(والذين يدعون مِن دونه) يعني الأصنام والأوثان ،(لا يستجيبون لهم بشيء) أي لا يجيبون لهم دعاءً ولا يسمعون لهم نداء)[3] ، وهو ما نرجحه لأنه أقرب للسياق.

قوله (وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ) (14) أراد الله بضرب هذا المثال بيان عدم جدوى عبادة المشركين لأصنامهم ، وبطلان أي عبادة يصرفونها لغير الله ، فضرب هذا المثال تقريبا للآذهان ، حيث شبه دعاء الكافر غير الله بحال رجل عطشان ظمآن يمسك الماء لكنه يمسكه وهو باسط كفيه فينزل الماء من بين يديه ولا يحكم قبضه ، فإذا بلغ كفيه فاه لم يجد ماء ليشرب منه ، لأنه يشرب بطريقة خاطئة ، والصحيح أن لا يبسط يديه بعدما غرف الماء ليتمكن من الشرب منه ، فكذلك الذي يدعو غير الله لن يجد منفعة تحصل له من دعائه لغير الله[4] .

[1]) مدارج السالكين ج2 ص 30
[2]) التفسير القيم لابن القيم ج2 ص 208
[3]) النكت والعيون ج2 ص 305
[4]) مركز تفسير للدراسات القرآنية غريب القرآن حلقة 334 https://www.youtube.com/watch?v=rJpFodZOYp8

طريقة خاطئة لغرف الماء باليد المبسوطة والأصابع منفرجة

(فَالماءُ جَمَادٌ لاَ يُدْرِكُ بَسْطَ الكَفَّيْنِ ، وَلاَ قَبْضَهُمَا ، فَكَيْفَ يُجِيبُ دُعَاءَهُ؟ وَكَذَلِكَ أَصْنَامَهُمْ فَإِنَّهَا حِجَارَةٌ لاَ تُدْرِكُ دُعَاءَ مَنْ عَبَدُوهَا ، وَلاَ تَفْهَمُهُ)[1].

قال الشنقيطي (وأي جدوى تعود عليه ومتى يذوق الماء وهو على تلك الحالة إنه يموت عطشا ولا يذوق منه قطرة ، وكذلك حال من يدعو غير الله مع ما يدعوهم من دونه لا يحصل على طائل)[2] .

قال أبو السعود (وهكذا شبّه حالُ المشركين في عدم حصولهم في دعاء آلهتِهم على شيء أصلاً وركاكةِ رأيهم في ذلك بحال عطشانَ هائمٍ لا يدري ما يفعل قد بسط كفيه من بعيد إلى الماء يبغي وصولَه إلى فيه ... والمرادُ نفيُ الاستجابةِ رأساً إلا أنه قد أُخرج الكلامُ مُخرج التهكم بهم فقيل : لا يستجيبون لهم شيئاً من الاستجابة إلا استجابةً كائنة في هذه الصورةِ التي ليست فيها شائبةُ الاستجابة قطعاً فهو في الحقيقة من باب التعليقِ بالمحال)[3] .

قوله (وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ) (15) السجود هنا بمعنى الانقياد لأمر الله ، فلا أحد قادر على أن يخرج عن حدود مشيئته سبحانه ، بل الكل منقاد له سبحانه ، أي مقهور لإرادته ومشيئته ، فلا أحد يختار أبويه ولا طوله ولونه ولا ما يحصل له في المستقبل من أمراض أو أحزان أو أفراح ...الخ ، وقد ذكر الشنقيطي أن المقصود بالسجود في هذا السياق (هو السجود اللغوي لا الشرعي ، أي أن المقصود من السجود الذي هو بمعنى الانقياد لأمر الله) [4]، فأمره نافذ ، وكل خاضع لإرادته ومشيئته حتى الظلال فإنها تسجد لله تعالى .

قال صاحب الظلال (ولأن الجو جو عبادة ودعاء ، فإن السياق يعبر عن الخضوع لمشيئة الله بالسجود وهو أقصى رمز للعبودية ، ثم يضم إلى شخوص من في السماوات والأرض ، ظلالهم كذلك ، ظلالهم بالغدو في الصباح ، وبالآصال عند انكسار الأشعة وامتداد الظلال ، يضم هذه الظلال إلى الشخوص في السجود والخضوع والامتثال)[5] .

قوله (..طَوْعًا وَكَرْهًا..) (15) طوعا يعني ينقاد بإرادته لله ، وذلك هو المؤمن المختار ، وكرها يعني يخضع لأمر الله فهو مقهور بأمر بمقتضى الجبلة وإن كره ذلك ، وذلك شأن الكافر ، ينقاد للمرض وينقاد للخسارة وللحزن والبكاء ..الخ

وعن قتادة قال : أما المؤمن ، فيسجد طائعاً ، وأما الكافر ، فيسجد كارهاً ، يسجد ظله)[6]

وعن مجاهد قال : « سجود المؤمن طائعا ، وسجود ظل الكافر وهو كاره »[7].

---

[1]) أيسر التفاسير لأسعد حومد ج1 ص 1722
[2]) أضواء البيان ج8 ص 66
[3]) تفسير أبي السعود ج3 ص 490
[4]) أضواء البيان للشنقيطي ج2 ص 240
[5]) في ظلال القرآن ج4 ص 360
[6]) وأخرج ابن جرير في تفسيره الطبري ج16 ص 403 وابن أبي حاتم وأبو الشيخ ، انظر الدر المنثور للسيوطي ج5 ص 495
[7]) تفسير مجاهد ج 1 ص 180 رقم 175

وفي ذلك إنكار على المجادلين في آيات الله وشخوصهم وظلالهم تسجد لله طوعا وكرها ، فقلوبهم تدق كما أمر الله ، وأنفاسهم تعمل كما خلق الله ، وكل ذرة في أجسادهم تدور وتتحرك كما دبر الله ، فهم عاجزون عن تسيير أنفسهم ، فكيف بهم ينكرون تسبيح ذرات أجسادهم لله ؟

قوله (..وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ) (15) كما في قوله (أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّداً لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلائِكَةُ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ) [النحل 48، 49] .

حيث يتغير اتجاه وطول الظل **عكسياً** مع تغير زاوية سقوط أشعة الشمس ، فيتكون الظل دائماً في الجهة المعاكسة لمصدر الضوء؛ فعندما تكون زاوية الشمس **منخفضة** (مائلة) يصبح الظل **طويلاً** ويمتد في الجهة المقابلة، بينما عندما تكون زاوية الشمس **مرتفعة** (عمودية) يصبح الظل **قصيراً** أو يختفي تماماً أسفل الجسم.

أي عندما تكون الشمس منخفضة في الأفق (سواء عند الصباح أو في المساء قبل الغروب)، تسقط أشعتها بزاوية مائلة ، مما يؤدي إلى امتداد الظل ليصبح طويلاً، لكن مع صعود الشمس تدريجياً نحو وسط السماء، يقصر الظل .

وعندما تكون الشمس في وسط السماء يختفي الظل ثم يتحرك وينتقل من جهة إلى أخرى ، حيث يبدأ طويلاً ناحية الغرب عند الغدو، وينسحب تدريجياً حتى ينعكس فيصبح طويلاً ناحية الشرق عند الآصال .

قوله (..بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ) (15) وذكر ظرفي الزمان (الغدو والأصال) تأكيد على دوام السجود لله ليل نهار ، كما في قوله (فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا **فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ**) (فصلت38) ، ودليل على خضوع الكل لله على مدار الزمان كلما تغير الليل والنهار، بلا انفطار .

قوله (قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ ..) (16) هنا يأت الوقت المناسب لتوجيه مثل هذا السؤال لهؤلاء المجادلين ، فيسألهم ربهم عن رب السماوات والأرض ، ولا ينتظر أن يجيبون ، بل يأمر نبيه محمد ﷺ أن يجيب هو ، قل الله ، بقصد التوبيخ والاستنكار ، قال الرازي (ولما كان هذا الجواب جواباً يقر به المسؤول ويعترف به ولا ينكره أمره ﷺ أن يكون هو الذاكر لهذا الجواب تنبيهاً على أنهم لا ينكرونه ألبتة)[1].

[1]) تفسير الفخر الرازي ج1 ص 2591

قوله (..قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ..) (16) هذه الآية من قبيل المناظرة للمجادلين الذين يعتمدون على الأسباب ولا يتوكلون على الله ، اتخذوا الأسباب سندا لهم حتى ظنوا موالاتها لهم ، وكثر اعتمادهم على المخلوقين ، وتناسوا أن الله هو الذي يخلق الأسباب وهو الذي يعدم فاعليتها ، وأن المخلوقين لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا ، فكيف يكونوا نافعين لغيرهم أو ضارين سواء أكانوا إنسا أو جنا .

انظر كيف أن الجن الذين أرادوا أن ينقلوا لسليمان عرش ملكة بلقيس لم يملكوا أن ينفعوا أنفسهم بعد موت سليمان وظلوا يطيعون أمره كرها وهم لا يدركون موته حتى وقع على الأرض وكان متكئا على عصاه التي أكلتها الأرضة ، قال تعالى (فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ)(سبأ14) .

قوله (..قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ ..) (16) فمعلوم أن المخلوقين لا يملكون جلب النفع لأنفسهم ولا دفع الضر عنها ، فشبه الله حال المجادلين بغير علم في ضلالهم بالأعمى ، فشتان بينه وبين من يبصر الحق فيعتمد على الخالق لا المخلوق ، فحال الأعمى أشبه بمن ظل في الظلمات يتخبط فيها ، وحال البصير بمن خرج في النور فهو يبصر الطريق أمامه .

قال ابن عجيبة (فالبصير من اعتمد في أموره على مولاه ، والأعمى من ركن في حوائجه إلى سواه)[1]

قوله (..أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ..) (16) أراد الله أن يثبت لهم عدم فاعلية ما يدعون من دونه بإثبات أنهم غير قادرين على الفعل ، فضلا عن الخلق ، فأين آثار خلقهم وأفعالهم ؟ فآثار الله تعالى الدالة على قدرته ظاهرة ، وقد ضرب الله لذلك عدة أمثلة في السورة مثل البرق والرعد والأمطار والصواعق ، فأين آثار آلهتهم التي يعبدون من دون الله ؟

وهكذا يتهكم القرآن على ضلالهم كعادته ، فيطرح شبهتهم ، وكأنهم تشابهت عليهم قدرة البشر في تحقيق مصالحهم فظنوا أن قدرتهم تعمل بذاتها دون أن يودع الله فيها فاعليتها ، كالعبد الذي يطعمه سيده ويلبسه ، فظن أن سيده هو ولي نعمته ، ونسي أن الله هو الذي يطعم سيده .

بل إن سيده إنما يرزق بما يصنع الله معه ، بل قد يرزق سيده برزق العبد الذي يطعمه ، فعَنْ مُصْعَبِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ رَأَى سَعْدٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ لَهُ فَضْلًا عَلَى مَنْ دُونَهُ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ **(هَلْ تُنْصَرُونَ وَتُرْزَقُونَ إِلَّا بِضُعَفَائِكُمْ)**[2]، قال المناوي أي (**ليس النصر وإدرار الرزق إلا ببركتهم** فإبرزه في صورة الاستفهام لمزيد التقرير وذلك لأنهم أعظم إخلاصا في الدعاء وأكثر خضوعا ، قوله (بضعفائكم) أي (بدعوتهم واخلاصهم) لأن عبادة الضعفاء أشد إخلاصا لخلو قلوبهم عن التعلق بالدنيا وذلك من أعظم أسباب الرزق والنصر)[3].

---

[1]) البحر المديد ج3 ص 159
[2]) رواه البخاري ج10 ص 25 رقم 2681
3) التيسير بشرح الجامع الصغير ج2 ص 927

لله في الآفاق آيات لعل****** أقلها هو ما إليه هداك
ولعل ما في النفس من آياته***** عجب عجاب لو ترى عيناك
والكون مشحون بأسرار إذا***** حاولْتَ تفسيرًا لها أعياك
قل للطبيب تخطَّفته يد الردى***** من يا طبيب بطبِّه أرْدَاك؟
قل للمريض نجا وعُوفِيَ بعدما***** عجزت فنون الطب من عافاك؟
قل للصحيح يموت لا من علة***** من بالمنايا يا صحيح دهاك؟
قل للبصير وكان يحذر حفرة***** فهَوَى بها من ذا الذي أهواك؟
بل سائل الأعمى خَطَا بين الزحام**** بلا اصطدام من يقود خطاك؟
قل للجنين يعيش معزولا بلا****** راعٍ ومرعى ما الذي يرعاك؟
قل للوليد بكى وأجهش بالبكاء***** لدى الولادة ما الذي أبكاك؟
وإذا ترى الثعبان ينفث سمَّهُ****** فاسأله من ذا بالسموم حَشَاكَ؟
واسأله كيف تعيش يا ثعبان****** أو تحيى وهذا السمُّ يملأ فَاكَ؟
واسأل بطون النَّحل كيف تقاطرت**** شهدًا وقل للشهد من حلاَّك؟
بل سائل اللبن المصَفَّى كان بين**** دم وفرث ما الذي صفَّاك؟
وإذا رأيت الحي يخرج من****** حَنَايا ميتٍ فاسأله من أحياك؟
قل للهواء تحثُّه الأيدي ويخفى عن*** عيون الناس من أخفاك؟
قل للنبات يجفُّ بعد تعهُّدٍ******* ورعاية من بالجفاف رَمَاك؟
وإذا رأيت النَّبت في الصحراء***** يربو وحده فاسأله من أَرْبَاكَ؟
وإذا رأيت البدر يسري ناشرًا***** أنواره فاسأله من أسْرَاك؟
واسأل شعاع الشمس يدنو وهي أبعد** كل شيء ما الذي أدناك؟
قل للمرير من الثمار من الذي***** بالمرِّ من دون الثمار غذاك؟
وإذا رأيت النخل مشقوق النوى***** فاسأله من يا نخل شقَّ نواك؟
وإذا رأيت النار شبَّ لهيبها****** فاسأل لهيب النار من أوراك؟
وإذا ترى الجبل الأشَمَّ مناطحًا***** قمَمَ السَّحاب فسَلْه من أرساك؟
وإذا ترى صخرًا تفجر بالمياه***** فسله من بالماء شقَّ صَفَاك؟
وإذا رأيت النهر بالعذب الزُّلال**** جرى فسَلْه من الذي أجراك؟
وإذا رأيت البحر بالملح الأُجاج ****طغى فسَلْه من الذي أطغاك؟
وإذا رأيت الليل يغشى داجيًا***** فاسأله من يا ليل حاك دُجاك؟
وإذا رأيت الصُّبح يسفر ضاحيًا**** فاسأله من يا صبح صاغ ضُحَاك؟
ستجيب ما في الكون من آياته***** عجب عجاب لو ترى عيناك
ربي لك الحمد العظيم لذاتك***** حمدًا وليس لواحد إلاَّك
يا مدرك الأبصار والأبصار **** لا تدركه ولكنه ادراكا
إن لم تكن عيني تراك فإنني***** في كل شيء أستبين عُلاك

قوله (..قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ..) (16) (هذا يدلُّ على أنَّ فعل العبد مخلوق لله تعالى ؛ لأنَّ فعل العبد شيء ، فوجب أن يكون خالقه هو الله تعالى)[1] ، فالله تعالى خلق العباد وخلق أفعالهم، وأعطاهم القدرة عليها، فتكون الأفعال فعلًا للعبد والله خالقها .

فعقيدة أهل السنة أن **أفعال العباد تنسب لله تعالى خلقا وتقديرا** ،كما في قوله تعالى: (وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ) (الصافات:96)، **وتنسب للعبد تحصيلا واكتسابا** ، قال تعالى (لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ) (البقرة 286) ، **والعبد مسير باعتبار سبق التقدير ، ومخير باعتبار دخول الفعل تحت طاقته وقدرته)**[2].

فالله سبحانه هو الذي يدبر الكون ، ويخلق الأسباب ، ويُقّعِّلُها أو يُبْطِلُها ، ولا أحد يدري كيف يأتيه الرزق وكيف يدفع الله عنه الضر ، قد يبدو للعيان أن الرزق يأتي بالعمل ، ولكنه في قدر الله يأتي بالدعاء ،كما في الحديث **(هَلْ تُنْصَرُونَ وَتُرْزَقُونَ إِلَّا بِضُعَفَائِكُمْ)** ، فالله هو الله يسبب الأسباب .

قوله (..وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ) (16) أي (هو الواحد المنفرد بالألوهية ، القهار الذي جميع الأشياء تحت قدرته وقهره)[3]، قال النيسابوري أي (المتوحد بالربوبية الذي لا يغالب وما عداه مربوب ومقهور)[4]

قال ابن منظور (والقَهَّارُ من صفات الله عز وجل ، قال الأَزهري : والله القاهرُ القَهّار **قَهَرَ خَلْقَه بسلطانه** وقدرته وصَرَّفهم على ما أَراد طوعاً وكرهاً ، والقَهَّار للمبالغة ، وقال ابن الأَثير : القاهر هو الغالب جميع الخلق " [5]

وصفة القهر المنسوبة لله تدل على أن **الناس مسيرون فيما هو ابتلاء لهم** ، فلا أحد منهم يختار ابتلائه ، ولكنهم **مخيرون فيما يفعلون في هذا الابتلاء** ، فالناس مساقون في أعمارهم ومقدرة أرزاقهم ومقهورون بالبلايا والموت ، ولا أحد منهم يدري ماذا يكسب غدا ولا بأي أرض يموت .

فالقهار هو الغالب الذي يقهر كل شيء تحت قدرته وسلطانه ، فهو الذي لا موجود إلا وهو مسخّر له عاجز في قبضته)[6]، "**فلا يستطيع أحد رد تدبيره والخروج من تقديره**" [7]، ويظهر ذلك بجلاء في قهره للخلق جميعًا بالموت، وقهره للجبابرة بالمرض والضعف وسلب سلطانهم ...وهكذا .

قال ابن القيم (القهار لا يكون إلا واحدا وأنه يستحيل أن يكون له شريك ، بل **القهر والوحدة متلازمان** فالملك والقدرة والقوة والعزة كلها لله الواحد القهار ، ومن سواه مربوب مقهور ، له ضد ومناف ومشارك)[8]

---

1) اللباب في علوم الكتاب ج9 ص 414
2) شرح الأرجوزة المفيدة في قواعد العقيدة ، الشيخ وليد بن راشد السعيدان : https://www.youtube.com/watch?v=lkJn4-Dhd3Y
3) البحر المحيط ج7 ص 112
4) تفسير النيسابوري ج4 ص 422
5)" لسان العرب" 5 /120
6)موقع الشيخ محمد المنجد : https://islamqa.info/ar/answers/153663/
https://www.islamweb.net/ar/fatwa/72964/
7) موسوعة النابلسي في شرح الأسماء الحسنى
8) طريق الهجرتين ج1 ص 233

وذكر ابن القيم الأمثلة علي ذلك فقال (خلق **الرياح** وسلط بعضها على بعض تصادمها وتكسر سورتها وتذهب بها وخلق **الماء** وسلط عليه الرياح تصرفه وتكسره وخلق **النار** وسلط عليها الماء يكسرها ويطفئها وخلق **الحديد** وسلط عليه النار تذيبه وتكسر قوته وخلق **الحجارة** وسلط عليها الحديد يكسرها ويفتتها وخلق **آدم** وذريته وسلط عليهم إبليس وذريته وخلق **إبليس** وذريته وسلط عليهم **الملائكة** يشردونهم كل مشرد ويطردونهم كل مطرد .

وخلق **الحر والبرد والشتاء والصيف** وسلط كلا منهما على الآخر يذهبه ويقهره ، وخلق **الليل والنهار** وقهر كلا منهما بالآخر وكذلك الحيوان على اختلاف ضروبه من **حيوان البر والبحر** لكل منه مضاد ومغالب فاستبان للعقول والفطر أن القاهر الغالب لذلك كله واحد وأن من تمام ملكه إيجاد العالم على هذا الوجه وربط بعضه على بعض وإحواج بعضه إلى بعض ، **وقهر بعضه ببعض** وابتلاء بعضه ببعض وامتزج خيره بشره **وجعل شره لخيره الفداء** ولهذا يدفع إلى كل مؤمن يوم القيامة كافر فيقال له هذا فداؤك من النار ، وهكذا المؤمن في الدنيا يسلط عليه الابتلاء والامتحان والمصائب ما يكون فداءه من عذاب الله) [1].

قوله (أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً **فَسَالَتْ** أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا **فَاحْتَمَلَ** السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا) (17) إنزال الماء من السماء يدل على أنه مقهور كي ينزل بهذه الكيفية ، وقد أشرنا من قبل إلى قدرة الله في تقطير الماء من السحاب الثقال الذي ينزن 500 طن ، ثم تشير الآيات إلى تسييله في الأودية ، فتلك آية أخرى تدل كذلك على أنه مسير في هذا المسيل ، وهكذا يسوق الله الآيات للمتكلفين فيرونها اضطرارا ، أما أنهم ينتفعون بها أو لا ينتفعون فهذا هو اختيارهم .

قال ابن القيم (**شبه الوحي** الذي أنزله لحياة القلوب والأسماع والأبصار **بالماء** الذي أنزله لحياة الأرض بالنبات **وشبه القلوب بالأودية** ، فقلب كبير يسع علما عظيما كواد كبير يسع ماء كثيرا ، وقلب صغير إنما يسع بحسبه كالوادي الصغير فسالت أودية بقدرها ، **واحتملت** قلوب من الهدى والعلم **بقدرها** ، وكما أن السيل إذا خالط الأرض ومر عليها احتمل غثاء وزبدا فكذلك **الهدى والعلم إذا خالط القلوب أثار ما فيها من الشهوات والشبهات ليقلعها ويذهبها كما يثير الدواء وقت شربه من البدن أخلاطه** ، فيتكدر بها شاربه ، وهي من تمام نفع الدواء فإنه أثارها ليذهب بها فإنه لا يجامعها ولا يشاركها ، وهكذا يضرب الله الحق والباطل)[2]

الزبد لا يمكث بل يذهب فلا نفع فيه ولا خير منه

[1]) طريق الهجرتين ج1 ص 233
[2]) التفسير القيم لابن القيم ج1 ص 488

قوله (.. وَمِمَّا **يُوقِدُونَ** عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ **يَضْرِبُ** اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا **الزَّبَدُ** فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا **مَا يَنْفَعُ** النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ **كَذَلِكَ** يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ) (17)كذلك ضرب الله مثالا آخر مقارب للمثال السابق لتصوير الزبد ولكن في عملية صهر المعادن ، حيث يتجمع زبد فيه شوائب المعدن التي لا نفع فيها تلقى وترمى ويبقى المعدن خالصا من الشوائب [1]

تتم عملية فصل الشوائب عن الحديد عبر سلسلة من المراحل الأساسية، تبدأ بـ**التكسير والطحن**، ثم **الفصل المغناطيسي** أو **فصل الجاذبية** للتخلص من الشوائب الصلبة .تلي ذلك مرحلة **الصهر** في الأفران العالية حيث يتفاعل **الحجر الجيري** مع الشوائب لتكوين "الخبث" الذي يُزال، ليتبقى حديد نقي منصهر يُعرف بالحديد الغُفل[2]

قال ابن القيم في قوله (وِمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ) (يعني أن مما يوقد عليه بنو آدم من الذهب والفضة والنحاس والحديد **يخرج منه خبثه وهو الزبد** الذي تلقيه النار وتخرجه من ذلك الجوهر بسبب مخالطتها فإنه يقذف ويلقى به ويستقر الجوهر الخالص وحده .

---

1) طرق فصل الذهب عن التراب مرحلة استخراج الذهب تُستخرج عروق الذهب من الصخور والرمال الموجودة في داخل الأرض أومن الجبال من خلال العديد من الأشخاص، وباستخدام أجهزة حديثة؛ كأجهزة الاستشعار عن بعد، حيث يحملها أحد الباحثين عن التنقيب، ويبدأ بالبحث في الجبال والرمال، فهذه الأجهزة تعطي إشعاراً وإنذاراً عند الوصول إلى قشرة ذهب في باطن الأرض، مما يستدعي الحفر والبحث وتشكيل مناجم خاصة للبحث عن الذهب، فبالرغم من أنه عمل مربح جداً، ولكنه مكلف في كثير من الأوقات، وكثيراً ما تتم محاولات التنقيب عن الذهب بالطريقة البدائية باستخدام أدوات الحفر، وبالتناوب بين عدد من الأشخاص. مرحلة التحليل والفصل تبدأ عمليه الكشف عن الأحجار والتنقيب في كثير من الجبال وقاع الارض لاكتشاف الأحجار وتجميعها على شكل حصى صغيرة أو أحجار، وعادة ما تُجمع حجارة الكاكار او الكوارتز، حيث إنها تحتوي على ذرات ذهب، وبعد اكتشافها تُطحن، وتجهز لعمليه فصل الذهب عن التراب، ثم توضع الحجارة التي يوجد فيها الذهب في أحواض كبيرة تحتوي على ماء الزئبق الأبيض، وتُغسل جيداً، مما يجعل ذرات الذهب تستقر في قاع الأحواض المعدنية، بينما ترتفع الأتربة إلى الأعلى. مرحلة الصهر مرحلة الصهر هي المرحلة التي تُجمع فيها ذرات الذهب التي استقرت في قاع الأحواض المعدنية أو مكان غسل الحجارة، وتُنقل إلى أطباق كبيرة، وتشعل تحتها نيران شديدة حتى تنصهر الذرات، فتعطي قطعاً ذهبية على شكل حبيبات تُجهز في مكان واحد لإتمام خطوة التشكيل....

2) https://www.ftmmachinery.com/ar/blog/how-to-process-iron-ore-step-by-step.html

وضرب سبحانه مثلا بالماء لما فيه من الحياة والتبريد والمنفعة ومثلا بالنار لما فيها من الإضاءة والإشراف والإحراق فآيات القرآن تحيي القلوب كما تحيا الأرض بالماء وتحرق خبثها وشبهاتها وشهواتها وسخائمها كما تحرق النار ما يلقى فيها وتميز جيدها من زبدها كما تميز النار الخبث من الذهب والفضة والنحاس ونحوه منه فهذا بعض ما في هذا المثل العظيم من العبر والعلم قال الله تعالى وتلك الامثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون)[1].

وقال ابن القيم (في المثل الناري وهو قوله "ومما توقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله" ، (وهو الخبث الذي يخرج عند سبك الذهب والفضة والنحاس والحديد ، فتخرجه النار وتميزه وتفصله عن الجوهر الذي ينتفع به فيرمى ويطرح ويذهب جفاء ، **فكذلك الشهوات والشبهات يرميها قلب المؤمن ويطرحها ويجفوها كما يطرح السيل والنار ذلك الزبد والغثاء والخبث** ويستقر في قرار الوادي الماء الصافي الذي يستقي منه الناس ويزرعون ويسقون أنعامهم كذلك يستقر في قرار القبل وجذره الإيمان الخالص الصافي الذي ينفع صاحبه وينتفع به غيره)[2]

(فَأَمَّا **الزَّبَدُ** فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا **مَا يَنْفَعُ** النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ)

فهذان المثالان ساقهما الله في هذا السياق **لتوضيح آثار الوحي** حينما **ينزل على قلوب الناس فيخرج ما فيها من شبهات وشوائب ، فتطهر ، وتشرب هذه القلوب من الوحي ما قدر لها أن تستوعبه** ، ومن جهة أخرى ألمح إلى أن بعض القلوب لا تنتفع بالوحي بل تشرب الزبد ، الذي لا نفع فيه ، قال ابن عاشور (ففي الآية استئناف ابتدائي أفاد تسجيل حرمان المشركين من الانتفاع بدلائل الاهتداء التي من شأنها أن تهدي من لم يطبع الله على قلبه ، فاهتدى بها المؤمنون)[3]

ويشهد لهذا المعنى ما روي عن النبي ﷺ قال " **مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنْ الْهُدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ الْغَيْثِ الْكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا فَكَانَ مِنْهَا**

- **نَقِيَّةٌ قَبِلَتْ الْمَاءَ فَأَنْبَتَتْ** الْكَلَأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ
- وَكَانَتْ **مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتْ الْمَاءَ ، فَنَفَعَ اللَّهُ بِهَا** النَّاسَ فَشَرِبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا وَأَصَابَتْ مِنْهَا
- طَائِفَةً أُخْرَى إِنَّمَا **هِيَ قِيعَانٌ لَا تُمْسِكُ مَاءً وَلَا تُنْبِتُ كَلَأً**

[1]) مفتاح دار السعادة ج1 ص 61
[2]) التفسير القيم لابن القيم ج1 ص 488
3) التحرير والتنوير ج12 ص 165

فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِي دِينِ اللَّهِ وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ فَعَلِمَ وَعَلَّمَ ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ"[1]

قال ابن علان (فيه تشبيه متعدد، **فشبه العلم بالغيث** لأنه يحيي القلب الميت إحياء المطر البلد اليابس، وفي التعبير بالغيث دون المطر لطيفة، إذ الغيث مطر محتاج إليه يغيث الناس عند قلة المياه، وقدكان الناس متحيرين قبل بعثته حتى أغاثهم الله بوابل علومه)[2]؛ فكان الناس في تعاملهم مع الوحي النازل لهم على ثلاثة أصناف: –

1- صنف ينتفع به فشبهه بالأرض الطيبة

2- وصنف يحمله لكن لم ينتفع به ، فشببه بالأرض الصلبة الماسكة للماء ، فينتفع به الناس

3- وشبه من لا يحمله ولا ينتفع به ، فشبهه بالقيعان.

[1]) رواه البخاري ج1 ص 141 رقم 77

[2]) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين ج2 ص 109

المحور الرابع

الحسنى لأهل الاستجابة وسوء العاقبة لناقضي الميثاق المفسدين في الأرض

قال تعالى (لِلَّذِينَ **اسْتَجَابُوا** لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى وَالَّذِينَ **لَمْ يَسْتَجِيبُوا** لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (18) أَفَمَنْ **يَعْلَمُ** أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ **أَعْمَى** إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو **الْأَلْبَابِ** (19) **الَّذِينَ** يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ (20) **وَالَّذِينَ** يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ (21) **وَالَّذِينَ** صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ (22) **جَنَّاتُ** عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ (23) سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا **صَبَرْتُمْ** فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ (24) **وَالَّذِينَ** يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (25) اللَّهُ **يَبْسُطُ الرِّزْقَ** لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ (26)

قال تعالى (**وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا** لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ (27) الَّذِينَ آمَنُوا **وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ** بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (28) الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ (29)

وفيه عدة مسائل :-

الأولى : داء العمى يمنع من الاستجابة

الثانية : صفات أهل الاستجابة

الثالثة : عاقبى أهل الاستجابة

الرابعة : صفات ناقضي الميثاق

الخامسة : عاقبة الدنيا والآخرة

السادسة : استمرار الكفار في المجادلة بالباطل

السابعة : اطمئنان قلب المؤمن بذكر الله

المسألة الأولى : داء العمى يمنع من الاستجابة

قوله (لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى..) (18) قال تعالى (وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ) (الشورى26) ، فالحسنى هي زيادة فضل الله ، وهذا جزاء أعده الله للذين استجابوا لدعوة ربهم ، والمقصود بالاستجابة –هنا– مبايعة الرسول على الحق ونصرته على أعدائه ، قال ابن عاشور (وأما

الاستجابة لله فهي ثابتة لجميع من آمن بالله لأن الاستجابة لله هي الاستجابة لدعوة النبي ﷺ فإنه دعاهم إلى الإسلام مبلغا عن الله فكأن الله دعاهم إليه فاستجابوا لدعوته ، والسين والتاء في "استجابوا" للمبالغة في الإجابة، أي هي إجابة لا يخالطها كراهية ولا تردد)[1].

ونظير هذه الآية قوله (وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ) (الشورى38) ، قال أبو حيان في هذه الآية قيل أنها: نزلت في الأنصار ، دعاهم الله للإيمان به وطاعته فاستجابوا له ، وكانوا قبل الإسلام ، وقبل أن يقدم رسول الله ﷺ المدينة ، إذا نابهم أمر تشاوروا ، فأثنى الله عليهم ، لا ينفردون بأمر حتى يجتمعوا عليه)[2]، وهكذا فهم الصحابة مقاصد الإسلام ، وعملوا بالشورى قبل أن يقدم عليهم النبي ﷺ ويعلمهم الشورى ، **فاستجابوا لمقاصد الإسلام وعملوا بها في الشأن العام ، فاستحقوا أن يعاملهم الله بالإحسان** .

(ولام "لربهم" للتقوية ، يقال استجاب له ، فالظاهر أنه أريد منه استجابة خاصة، وهي إجابة المبادرة مثل أبي بكر وخديجة وعبد الله بن مسعود وسعد بن أبي وقاص ونقباء الأنصار أصحاب **ليلة العقبة**)[3]، يقول صاحب الظلال (وواضح من هذا النص أن الاستجابة أو عدم الاستجابة راجعة إلى اتجاههم وحركتهم ؛ وأن مشيئة الله بهم إنما تتحقق من خلال هذه الحركة وذلك الاتجاه)[4].

ونجد أثر هذه الاستجابة من الصحابة في كل حال ، حتى في وقت الضيق والشدة والجراح ، فعندما **رجعوا من غزوة "أحد"** ، وقد أصابتهم الجراح ، وابتلوا بالهم والغم ، وقد أمرهم الرسول ﷺ بالرجوع مرة أخرى لمواجهة قريش قبل أن يستريحوا في غزوة حمراء الأسد ، فما كان منهم إلا أن استجابوا لهذا الأمر دون تردد ، فأنزل الله فيهم (الَّذِينَ **اسْتَجَابُواْ لِلّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ** لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَاتَّقَواْ أَجْرٌ عَظِيمٌ) (آل عمران 172) ، فالطاعة لله وللرسول واجبة في المنشط والمكره على السواء ، فعَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ قَالَ بَايَعْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَلَى **السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي الْمَنْشَطِ وَالْمَكْرَهِ** وَأَنْ لَا نُنَازِعَ الْأَمْرَ أَهْلَهُ وَأَنْ نَقُومَ أَوْ نَقُولَ بِالْحَقِّ حَيْثُمَا كُنَّا لَا نَخَافُ فِي اللَّهِ لَوْمَةَ لَائِمٍ)[5].

وقد عبرت الآية عن "الجنة" بالحسنى[6]، قال الرازي (ذلك أن "الحسنى" هي المنفعة العظمى في الحسن ، وهي المنفعة الخالصة الخالية عن شوائب المضرة والانقطاع)[7] ، هذا في الآخرة ، أما في الدنيا فـ "الحسنى" تشمل تحسين حياتهم لما هو

1) التحرير والتنوير ج25 ص 170
2) تفسير البحر المحيط ج9 ص 484
3) التحرير والتنوير ج25 ص 170
4) في ظلال القرآن ج4 ص 381
5) رواه البخاري ج22 ص 140 رقم 6660
6) انظر التسهيل لابن جزي ج1 ص 767
7) تفسير الفخر الرازي ج1 ص 2594 ، تفسير الخازن ج4 ص 82

أحسن ، قيل (إن النور إذا دخل الصدر انفسح) ، وعلامة ذلك (التجافي عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود والاستعداد للموت قبل نزوله)[1].

قوله (..وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ) (18) ونظير ذلك قوله (**وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ**) (الشورى 16) ، ونجد أن سورة الشورى اكتظت بالآيات التي تحض على الاستجابة لله وللرسول ، وتلك التي **تحذر من التباطؤ عن الاستجابة** كما في قوله (**اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ** مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ) (الشورى47).

فعَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ يُقَالُ لِلرَّجُلِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَ لَكَ مَا عَلَى الْأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ أَكُنْتَ مُفْتَدِيًا بِهِ قَالَ فَيَقُولُ نَعَمْ قَالَ فَيَقُولُ قَدْ **أَرَدْتُ مِنْكَ أَهْوَنَ مِنْ ذَلِكَ** قَدْ أَخَذْتُ عَلَيْكَ فِي ظَهْرِ آدَمَ أَنْ لَا تُشْرِكَ بِي شَيْئًا فَأَبَيْتَ إِلَّا أَنْ تُشْرِكَ بِي)[2].

قال ابن القيم (النَّاسُ فِي تَلَقِّيهِمْ دَعْوَةَ اللهِ صِنْفَانِ : فَالذِينَ أَطَاعُوا رَبَّهُمْ ، وَانْقَادُوا لأَوَامِرِهِ ، وَاسْتَجَابُوا لِدَعْوَةِ رَسُولِه ﷺ لَهُمْ ، يَوْمَ القِيَامَةِ ، المَثُوبَةُ الحُسْنَى الخَالِصَةُ ، وَالذِينَ عَصَوْا رَبَّهُمْ ، وَكَذَّبُوا رَسُولَهُ ، سَيُلاَقُونَ حِسَاباً عَسِيراً يَوْمَ القِيَامَةِ ، فَيُحَاسَبُونَ عَلَى الجَلِيلِ وَالحَقِيرِ مِنَ الأَعْمَالِ ، لأَنَّ كُفْرَهُمْ أَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ، وَلَنْ يُنْقِذَهُمْ مِنْ سُوءِ المَصِيرِ أَحَدٌ ، وَلَنْ يُغْنِيَ عَنْهُمْ جَمْعُهُمْ وَلاَ مَالُهُمْ ، وَلَوْ أَنَّهُمْ أَتَوْا بِمِثْلِ الأَرْضِ ذَهَباً ، وَمِثْلَهُ مَعَهُ ، لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ اللهِ ، فَلاَ يُمْكِنُهُمْ ذَلِكَ ، وَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُمْ ، وَسَتَكُونُ جَهَنَّمُ مَأْوَاهُمْ وَمُسْتَقَرَّهُمْ ، يَوْمَ القِيَامَةِ ، وَسَاءَتْ مَصِيراً)[3].

يستبين مما تقدم هوان الدنيا التي ألهت المجادلين ، فهم يجادلون أهل الحق ليس لعدم قناعتهم بالآيات والمعجزات ، وإنما طمعا في نصيب أكبر من الدنيا ، ولكنها لن تغني عنهم شيئا يوم القيامة ، (لَوْ أَنَّ لَهُمْ **مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ**) ، فلا يفتدون ، ولن يقبل منهم ذلك ، وقد أمرهم الله بأهون من ذلك ، لكنهم لم يستجيبوا، ففي رواية ابن حبان "يؤتى برجل من أهل النار فيقول له: يا ابن آدم كيف وجدت منزلك؟ فيقول: يا رب شر منزل فيقول: **أتفتدي منه بطلاع الأرض ذهبا**؟ فيقول: نعم يا رب, فيقول: كذبت **قد سئلت ما هو أهون من ذلك** فيرد إلى النار"[4].

قوله (أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ **كَمَنْ هُوَ أَعْمَى** إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ) (19) يقول سيد قطب (وهكذا يتقرر أن الذين لا يستجيبون لهذا الحق هم **بشهادة الله سبحانه عُمْي** ، وأنهم لا يتفكرون ولا يعقلون) ، والعمى المقصود من السياق هو عمى البصيرة ، كما في قوله سبحانه (فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ) (الحج/46) .

---

[1]) رواه الحاكم مرفوعا ج4 ص 346 رقم 7863
[2]) رواه أحمد ج24 ص 387 رقم 11841 وصححه الألباني : الجامع الصغير ج1 ص 1409 رقم 14083
[3]) الخصال الموجبة لدخول النار ج1 ص 458
[4]) صحيح ابن حبان ج16 ص 347 رقم 7350

فالذي يستجيب لأمر الله ويطيعه ، ليس كمن هو أعمى عن مراد ربه ، فلا يطيعه إلا مكرها ، أي مقهورا ، كالأعمى يقاد إلى الطريق وإن لم يرغب ، وهكذا يستبين أن سنن الله الكونية لا يشذ عنها أحد ، فمشئته الكونية ماضية وقاهرة للعباد ، سواء اتفقت سلوكياتهم مع إرادة الله الكونية أم تعارضت ، فهم مساقون للسجود لله كما في قوله (وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ)(الرعد 15) .

قوله (..إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ) (19) الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ) (20) وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ) (21)

حصرت الآية الذين يتذكرون آيات الله في أولي الألباب ، أي أصحاب العقول الذين يتفكرون في آيات الله وآلائه وخلق السماوات والأرض ، فهؤلاء هم الذين يتذكرون أوامر الله ويراعون حقوقه عليهم ، ولذلك بينت بعد ذلك صفات أولي الألباب ، فكان في مقدمتها الصفات التالية :-

1- الوفاء بعهد الله ، وهذه سمة أهل الوفاء ، وبها أسلم خيار الناس في الجاهلية
2- وصلة الأرحام ، وهذه سمة أهل الرحمة ، وبها سبق للإسلام أهل الصلة
3- والخشية من الله ، وهذه سمة أهل الإسلام ، فإن الخشية دليل على حسن إسلامهم
4- ومخافة اليوم الآخر ، وبهذه الصفة تجرد أهل الإسلام عن ملذات الدنيا
5- والصبر على البلاء ابتغاء رضا الله ، وبها يستكمل أهل الخشية نصف الإيمان
6- وإقامة الصلاة ، وبها يتحقق أهل الصبر النصف الثاني للإيمان
7- والإنفاق في سبيل الله ، على وجه سواء في السر والعلانية ، وبها يتعدى خير أهل الإيمان للناس جميعا
8- والمبادرة بالتوبة فور الوقوع في المعصية بالإصلاح عند الفساد ، ودفع السيئة بالحسنة تمحها ، وبها يتمحص الإيمان من كل شائبة تعتريه مستقبلا .

وقد استبان من أسلوب القصر أن محصلة ذلك كله التذكر (إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ) ، وأجملت لهم الجزاء بقوله (أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ) يقول صاحب الظلال (إن حياة **الناس لا تصلح إلا بأن يتولى قيادتها المبصرون أولو الألباب** الذين يعلمون أن ما أنزل إلى محمد ﷺ هو الحق . ومن ثم يوفون بعهد الله على الفطرة ، وبعهد الله على آدم وذريته ، أن يعبدوه وحده ، فيدينوا له وحده ، ولا يتلقوا عن غيره ، ولا يتبعوا إلا أمره ونهيه . ومن ثم يصلون ما أمر الله به أن يوصل ، ويخشون ربهم فيخافون أن يقع منهم ما نهى عنه وما يغضبه؛ ويخافون سوء الحساب ، فيجعلون الآخرة

في حسابهم في كل حركة؛ ويصبرون على الاستقامة على عهد الله ذاك بكل تكاليف الاستقامة؛ ويقيمون الصلاة؛ وينفقون مما رزقهم الله سراً وعلانية؛ ويدفعون السوء والفساد في الأرض بالصلاح والإحسان . .)[1].

ثم فصلت الآيات جزاءهم بقوله (جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آَبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ * سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ) ثم ذكرت نقيضهم في قوله (وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ) .

المسألة الثانية : صفات أهل الاستجابة

قوله (الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ) (20) تلك الأخلاق هي الآية التي تقطر القلوب البيضاء للإسلام ، وأصحاب العقول الراجحة ، الذين يرون الشرف في الوفاء بالعهد ، والكلمة عندهم سيف على صاحبها لا يمكنه أن يتخلص منها إلا بالوفاء ، وكذلك أطرت قلب حكيم بن حزام ، فعنه أنه قال للنبي ﷺ **أرأيت أمورا كنت أتحنث بها في الجاهلية من صلة وعتاقة وصدقة فهل لي فيها أجر** قال حكيم قال رسول الله ﷺ **أسلمت على ما سلف من خير)** [2].

فالعهد أمانة الكلمة ، والنبي ﷺ يقول (**لا دين لمن لا أمانة له**)[3] ، وفي رواية ابن حبان "**لا إيمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد** له)[4] ، وعن عمر بن الخطاب قال (**لا يغرنك صلاة رجل ولا صيامه من شاء صام ومن شاء صلى ولكن لا دين لمن لا أمانة له)** [5].

قال أبو حيان (جملة "ولا ينقضون الميثاق" ، **جملة توكيدية** لقوله "يوفون بعهد الله" ، لأن **العهد هو الميثاق** ، ويلزم من إيفاء العهد انتفاء نقيضه)[6]، **والميثاق أشد في التوثيق من العهد** ، والعهد أشد من الوعد ، فالتعبير بالأشد تأكيد على قوة التزام المسلم بالوفاء ، ذلك أن **الميثاق** قد يكون تشريع يتناول تنظيم جملة مسائل في موضوع تعاقدي مثل الزواج بما يسمى بالقواعد المكملة ، وذلك ما لم يتفق الأطراف على خلافها ، مثل رد الهدايا عند فسخ الخطبة ..الخ ، **وقد يكون الميثاق** اتفاقا شارعا بين طرفين أو عدة أطراف أي يعني يتناول عدة مسائل بالتنظيم لموضوع ينظم العلاقة بينهم كشركة أو مؤسسة أو دولة أو عدة دول ، بينما **الوعد** فهو التزام من طرف واحد بفعل شيء معين ، أما **العهد** فهو اتفاق بين طرفين علي شيء معين ، من ذلك يتضح أن الميثاق بنوده موضوعية تتضمن عدة التزامات متكاملة لتحقيق غرض معين مثل عقد الشركة ، عقد الزواج وما فيه من شروط متبادلة ...الخ ، وهكذا كلما زادت أهمية الموضوع زات شروطه والتزامات الطرفين فيه ، فيصير هذا الاتفاق ميثاقا شارعا ، وليس مجرد عهد أو وعد .

---

[1]) في ظلال القرآن ج4 ص 384
[2]) رواه البخاري في الأدب المفرد ج1 ص 38 رقم 70 وصححه الألباني : السلسلة الصحيحة ج1 ص 496 رقم 248 صحيح الأدب المفرد ج1 ص 31
[3]) رواه الطبراني في المعجم الكبير ج8 ص 247 رقم 7988 وصححه الألباني : الجامع الصغير ج1ص1314 رقم 13135
[4]) صحيح ابن حبان ج1 ص 423 رقم
[5]) رواه البيهقي في شعب الإيمان ج4 ص 326 رقم 5279 ومثله عن عائشة رضي الله عنها
[6]) البحر المحيط ج7 ص 117

والوفاء بهذا النوع من المواثيق يتطلب علم وقوة وأمانة ، فالعلم ببنود الميثاق وشروطه أمر لازم ، ويتطلب تأهيلا كافيا بما يتناسب مع موضوع الميثاق سواء أكان تجاريا أم عسكريا أو سياسيا أم اقتصاديا ....الخ ،كما يتطلب قوة على الوفاء بالالتزامات ، ما يعني توافر الخبرة العملية التي لا تتوافر إلا بالكد والكدح في العمل لسنوات طوال ، وتوافر الضمانات الكافية للوفاء ، أي ملاءة مالية ، وضمانات عينية ، هذا لا يتصور إلا إذا كان للمسلم ثقل في السوق ومكانة بين قومه ، ولذلك قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ (**لَا يَبِعْ فِي سُوقِنَا إِلَّا مَنْ قَدْ تَفَقَّهَ فِي الدِّينِ**) [1]أي درس فقه البيع والشراء حتى لا يأكل الربا شاء أم أبى ، وكذلك سائر المواثيق الشارعة كالزواج ، فلا يقدم على الزواج من لا يفقه واجبات الزوج والزوجة وواجبهما نحو الأبناء ، بل لابد من دراسة فقه الزواج وواجبات المربين والعلم به حتى يتسنى الوفاء بهذه الحقوق بعد الزواج .

كما أن الأمانة متطلبة فوق كل ذلك ، وهو ما تميز به المسلمون الأوائل ، ففتحوا البلاد بحسن معاملتهم للناس وأماناتهم ، لكن من علامات اقتراب الساعة تنزع الأمانة كما أخبر بذلك النبي ﷺ فقال (**إِذَا ضُيِّعَتْ الْأَمَانَةُ فَانْتَظِرْ السَّاعَةَ** قَالَ كَيْفَ إِضَاعَتُهَا قَالَ إِذَا وُسِّدَ الْأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ فَانْتَظِرْ السَّاعَةَ)[2]، وفي رواية (إِذَا أُسْنِدَ الْأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ) [3]

قوله (وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ) أمر الله تعالى بصلة الأرحام ، فقال سبحانه (وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ) (الإسراء/26) ، وقال (وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ) (النساء1) ، وقال (وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى..) (النساء/36) ، وقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (**الرَّحِمُ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ تَقُولُ مَنْ وَصَلَنِي وَصَلَهُ اللَّهُ وَمَنْ قَطَعَنِي قَطَعَهُ اللَّهُ**)[4]، وقال ﷺ (**صلوا أرحامكم ؛ فإنه أبقى لكم في الدنيا والآخرة**)[5]، وعَنْ بَهْزِ بْنِ حَكِيمٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ قَالَ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ أَبَرُّ قَالَ أُمَّكَ ثُمَّ أُمَّكَ ثُمَّ أُمَّكَ ثُمَّ أَبَاكَ ثُمَّ الْأَقْرَبَ فَالْأَقْرَبَ)[6].

فدعوة الإسلام قائمة على صلة الأرحام ، فالأرحام آية من آيات الله ، وصلتها يدل على صدق النبوة وصحة الرسالة ، **فلا خير في دين لا يدعو إلى صلة الأرحام** .

ولو تأمل المجادلون والمقترحون على أنبيائهم الآيات لعلموا أن الاستجابة لهذا الخلق الكريم كافي لإسعادهم في الدنيا والآخرة ، يقول النبي ﷺ (**مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ وَيُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ**)[7]، قال النووي (ينسأ مهموز أي يؤخر ، والأثر الأجل لأنه تابع للحياة في أثرها ، وبسط الرزق توسيعه وكثرته وقيل البركة فيه ، وأما التأخير في الأجل ، ففيه سؤال مشهور وهو أن الآجال والأرزاق مقدرة لا تزيد ولا تنقص ، فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون

---

[1]) رواه الترمذي ج2 ص 308 رقم 449 وحسنه الألباني ج1 ص 487
[2]) رواه البخاري ج1 ص 103 رقم 57
[3]) رواه البخاري ج20 ص 149 رقم 6015
4) رواه مسلم ج12 ص 407 رقم 4635
5) أخرجه الطبري ج4ص227 ، وعزاه المصنف في الدر المنثور 424/2 لعبد بن حميد وابن جرير في تفسيرهما ، انظر جمع الجوامع للسيوطي ج1 ص 790 ، وصححه الألباني : السلسلة الصحيحة ج2 ص 363 رقم 736
[6]) رواه أبو داود ج13 ص 350 رقم 4473 وصححه الألباني : صحيح وضعيف سنن أبي داود ج11 ص 139 رقم 5139
7) رواه مسلم ج12 ص 411 رقم 4639

ساعة ولا يستقدمون ، وأجاب العلماء بأجوبة الصحيح منها أن هذه **الزيادة بالبركة في عمره والتوفيق للطاعات وعمارة أوقاته بما ينفعه في الآخرة وصيانتها عن الضياع** في غير ذلك)[1].

ولصلة الأرحام في الإسلام مفهوم خاص ، فالصلة تعني كما قال رسول الله ﷺ (**لَيْسَ الْوَاصِلُ بِالْمُكَافِئِ وَلَكِنْ الْوَاصِلُ الَّذِي إِذَا قُطِعَتْ رَحِمُهُ وَصَلَهَا**)[2]، قيل (معناه ليس الواصل رحمه الذي يصلهم مكافأة لهم على صلةِ تقدمت منهم إليه، فكافأهم عليها بصلة مثلها، وقد رُوي هذا المعنى عن عمر بن الخطاب وقال: (ذلك القصاص، ولكن الوصل أن تصل من قطعك)[3].

كما أن صلة الأرحام لها في الإسلام تصور كامل لا يقتصر على مجرد الزيارة والسؤال فحسب ، بل تعكس الحالة النفسية للمسلم ،وهو يود التقرب والتزلف من الناس من حوله لإيجاد صلة بينه وبينهم تساعده على الحوار معهم وإعانتهم ومساعدتهم ولكي يألفوه ويعتادوا رؤيته ، ومن ثم يتواصوا بالحق والصبر معا .

كما تتسع دائرة الصلة لتتعدى الأقارب إلى غير الأقارب ، وتتعدى الإنسان إلى الحيوان والطيور ، قال الزمخشري (ويدخل فيه وصل قرابة رسول الله وقرابة المؤمنين الثابتة بسبب الإيمان (إِنَّمَا المؤمنون إِخْوَةٌ) [الحجرات : 10] بالإحسان إليهم على حسب الطاقة ، ونصرتهم ، والذب عنهم ، والشفقة عليهم ، والنصيحة لهم ، وطرح التفرقة بين أنفسهم وبينهم ، وإفشاء السلام عليهم ، وعيادة مرضاهم ، وشهود جنائزهم . ومنه مراعاة حق الأصحاب والخدم والجيران والرفقاء في السفر ، وكل ما تعلق منهم بسبب ، حتى الهرة والدجاجة)[4]

وصلة الحيوان لها أساس من الشرع ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ بَيْنَمَا **كَلْبٌ يُطِيفُ بِرَكِيَّةٍ كَادَ يَقْتُلُهُ الْعَطَشُ** إِذْ رَأَتْهُ بَغِيٌّ مِنْ بَغَايَا بَنِي إِسْرَائِيلَ فَنَزَعَتْ مُوقَهَا **فَسَقَتْهُ فَغُفِرَ لَهَا بِهِ**)[5] .

عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : بينما رجل يمشي بطريق اشتد به العطش فوجد بئرا فنزل فيها فشرب ثم خرج فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش فقال الرجل لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغني فنزل البئر فملأ خفه ثم أمسكها بفيه فسقى الكلب فشكر الله له فغفر له قالوا يا رسول الله (وإن لنا في البهائم أجرا؟) قال (**في كل كبد رطبة أجر**)[6].

وعن الفضيل بن عياض قال (واعلموا أنّ العبد لو أحسن الإحسان كله وكانت له دجاجة فأساء إليها لم يكن من المحسنين)[7].

قوله (وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ) (21) ناسب ذكر الخشية بعد صلة الأرحام ، ذلك أن الذي يصل ما أمر الله بوصله دون مكافأة ، فإنه يفعل ذلك خشية حق ربه عليه يوم القيامة ، وليس أشد ترهيبا من قول الرسول ﷺ في قطع الرحم من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الْخَلْقَ حَتَّى إِذَا فَرَغَ مِنْهُمْ قَامَتْ الرَّحِمُ فَقَالَتْ

---

1) شرح النووي على مسلم ج16 ص 114
2) رواه البخاري ج18 ص 394 رقم 5532
3) شرح العيني لسنن أبي داود ج6 ص 455
4) الكشاف ج3 ص 245 ويراجع كذلك مؤلفنا في مقدمة سورة النساء
5) رواه البخاري ج11 ص 286 رقم 3208
6) رواه البخاري في الأدب المفرد ج1 ص 137 رقم 378 ورواه في صحيحه ج8ص182 رقم 2190
7) تفسير ابن أبي حاتم ج2 ص 8

هَذَا **مَقَامُ الْعَائِذِ مِنْ الْقَطِيعَةِ** قَالَ نَعَمْ **أَمَا تَرْضَيْنَ أَنْ أَصِلَ مَنْ وَصَلَكِ وَأَقْطَعَ مَنْ قَطَعَكِ** قَالَتْ بَلَى قَالَ فَذَاكِ لَكِ ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ اقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ "**فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ** أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمْ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا")[1] .

قوله (وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ) ومن جملة أنواع الصبر **وأوله الصبر على حسن الخلق وصلة الأرحام** حتى وإن كان في مقابل ذلك ملاقاة إساءة المعاملة منهم ، فتلك هي تربية الإسلام للمسلم أن يكون كالثمر يلقونه الناس بالحجر ويلقيهم بالثمر ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَجُلًا قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ (إِنَّ لِي قَرَابَةً **أَصِلُهُمْ وَيَقْطَعُونِي وَأُحْسِنُ إِلَيْهِمْ وَيُسِيئُونَ إِلَيَّ وَأَحْلُمُ عَنْهُمْ وَيَجْهَلُونَ عَلَيَّ** فَقَالَ لَئِنْ كُنْتَ كَمَا قُلْتَ فَكَأَنَّمَا تُسِفُّهُمْ الْمَلَّ وَلَا يَزَالُ مَعَكَ مِنْ اللَّهِ ظَهِيرٌ عَلَيْهِمْ مَا دُمْتَ عَلَى ذَلِكَ)[2] (الملّ) أى (الرّمَاد الحارّ وقيل : الجمر الذى تشوى فيه الخُبْزة ولا يقال له مَلّ حتى يخالطَه رماد)[3]

قال النووي (ومعناه كأنما تطعمهم الرماد الحار وهو تشبيه لما يلحقهم من الألم بما يلحق آكل الرماد الحار من الألم ولا شئ على هذا المحسن بل ينالهم الاثم العظيم في قطيعته وإدخالهم الأذى عليه ، وقيل معناه إنك بالإحسان إليهم تخزيهم وتحقرهم في أنفسهم لكثرة إحسانك وقبيح فعلهم من الخزي والحقارة عند أنفسهم كمن يسف الملّ ، وقيل ذلك الذي يأكلونه من إحسانك كالملّ يحرق أحشاءهم)[4]، قال ابن عثيمين (يعني فاستمر على صلتهم ولو كانوا يقطعونك ولو كانوا يسيئون إليك ولو كانوا يعتدون عليك، صلهم لأن من لا يصل إلا إذا وصل فليس بواصل بل هو مكافئ)[5] .

لكن هناك احتراز في هذه المسألة وهو أنه أحيانا– يتعذر الصلة إلا بعد حصول فساد أو ضرر كبير ، فهنا يكون درء المفسدة مقدم على جلب المصلحة ، فتتعطل الصلة في هذه الحالة فقط ، وذلك يحتاج لفتوى خاصة بحسب كل حالة على حالتها [6].

والصبر له ميادين شتى قال الرازي (يدخل فيه الصبر على فعل **العبادات** والصبر على ثقل **الأمراض** والمضار ، والغموم والأحزان ، والصبر على ترك المشتهيات ، وبالجملة الصبر على **ترك المعاصي** وعلى **أداء الطاعات** ، ثم إن الإنسان قد يقدم على الصبر لوجوه :–

أحدها : أن يصبر ليقال ما أكمل صبره وأشد قوته على تحمل النوازل.

وثانيها : أن يصبر لئلا يعاب بسبب الجزع.

وثالثها : أن يصبر لئلا تحصل شماتة الأعداء.

ورابعها : أن يصبر لعلمه بأن لا فائدة في الجزع

فالإنسان إذا أتى بالصبر لأحد هذه الوجوه لم يكن ذلك داخلاً في كمال النفس وسعادة القلب

---

[1]) رواه مسلم ج12 ص 406 رقم 4634
2) رواه مسلم ج12 ص 412 رقم 4640
[3]) الفائق في غريب الحديث ج2 ص 184
[4]) شرح النووي على مسلم ج16 ص 115
[5]) شرح رياض الصالحين ج1 ص 1825
6) كتاب: فتاوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء «المجموعة الرابعة» ص 65-75 الفتوى رقم (7010) وما بعدها

أما إذا صبر على البلاء لعلمه بأن **ذلك البلاء قسمة حكم بها القسام العلام** المنزه عن العيب والباطل والسفه ، بل لا بد أن تكون تلك القسمة **مشتملة على حكمة بالغة ومصلحة راجحة ورضي بذلك** ، لأنه تصرف المالك في ملكه ولا اعتراض على المالك في أن يتصرف في ملكه أو يصبر لأنه صار مستغرقاً في مشاهدة المبلى ، فكان استغراقه في تجلي نور المبلى أذهله على التألم بالبلاء ، وهذا أعلى مقامات الصديقين ، فهذه الوجوه الثلاثة هي التي يصدق عليها أنه **صبر ابتغاء وجه ربه** ومعناه أنه صبر لمجرد ثوابه ، وطلب رضا الله تعالى) [1].

قال الشوكاني (قوله : (ابْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ) ومعنى كون ذلك الصبر لابتغاء وجه الله : أن يكون خالصاً له ، لا شائبة فيه لغيره)[2] ، (فالعبد يصبر على البلاء والمحنة ، ويرضى به لاستغراقه في معرفة نور الحق) .

وقال القشيري (الصبر يختلف باختلاف الأغراض التي لأَجْلِها يصبر الصابر ، **فالعُبَّاد** يصبرون لخوف العقوبة ، **والزهاد** يصبرون طمعاً في المثوبة ، **وأصحاب الإرادة** هم الذين صبروا ابتغاء وجهِ ربهم؛ وشرطُ هذا النوع من الصبر رَفْضُ ما يمنع من الوصول ، واستدامةُ التوقي منه ، فيدخل فيه ترك الشهوات ، **والتجردُ** عن جميع الشواغل والعلاقات ، فيصبر عن العِلَّةِ والزَّلةِ ، وعن كل شيءٍ يشغل عن الله) [3].

قوله (وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً) ذلك أن أعمال الخير إذا لم تقترن بأركان الإسلام ، فإنها تخرج عن معنى مرضاة الله ، لتكون مجرد إحسان كإحسان أهل الجاهلية للناس ، فلا يثاب فاعلها لافتقار شرط النية لله ، قال رسول الله ﷺ (**لَا خَيْرَ فِي دِينٍ لَا رُكُوعَ فِيهِ**)[4] ، ولذلك أكدت الآيات على أهمية الحفاظ على الأركان وهي بصدد الحديث عن صلة الأرحام ، فإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة دليلان على الحرص على الأركان ، ولا تغني الأخلاق وحسن المعاملة عن إقامة العبادات .

قوله (وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ) أي يدفعون الإساءة بحسن المعاملة كقوله (**ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ** وَمَا يُلَقَّاهَا إِلا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ) [فصلت: 34، 35] ، فعن ابن زيد – رضي الله عنه – في قوله (ويدرؤون بالحسنة السيئة) قال : (**يدفعون الشر بالخير** ، ل**ا يكافئون الشر بالشر ، ولكن يدفعونه بالخير**)[5] ، قال ابن كثير أي: (لا يقابلون السيئ بمثله، ولكن يعفون ويصفحون)

وتلك هي شيم من يصلون الأرحام ، كما ورد في الحديث (أَصِلُهُمْ وَيَقْطَعُونِي وَأُحْسِنُ إِلَيْهِمْ وَيُسِيئُونَ إِلَيَّ وَأَحْلُمُ عَنْهُمْ وَيَجْهَلُونَ عَلَيَّ) ، وذلك كمن يصل رحمه وهم يسيئون إليه ، فعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ (**ألا أدلكم على مكارم الأخلاق في الدنيا والآخرة** ؟ قالوا بلى يا رسول الله ﷺ قال : **صل من قطعك ، واعط من حرمك ، واعف عمن ظلمك**)[6] .

---

[1]) تفسير الفخر الرازي ج1 ص 2597
[2]) فتح القدير ج4 ص 105
[3]) تفسير القشيري ج4 ص 4
[4]) رواه أحمد ج36 ص 335 رقم 17235 فهو وإن ضعفه الألباني لكن معناه صحيح
[5]) الدر المنثور ج6 ص 2
[6]) رواه البيهقي : شعب الإيمان ج6 ص 261 رقم 8081 وصححه الألباني : الجامع الصغير ج1 ص 722 رقم 7217

المسألة الثالثة : عاقبى أهل الاستجابة

قوله (أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ) (22) (جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا) قال البقاعي (العقبى) هي الانتهاء الذي يؤدي إليه الابتداء من خير أو شر)[1] ، والعاقبة تكون في الدارين ، دار الفناء ، ودار البقاء لأهل الإسلام ، لكن لما كانت العاقبة في دار البقاء خير من دار الفناء ، لم تذكر الآيات دار الفناء واكتفت بما هو خير ، لقوله سبحانه (وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ) (الرعد26) ، وعاقبة الدنيا : أن يختم للعبد بالرحمة والرضوان وتلقي الملائكة بالبشرى عند الموت.

قوله (جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ) (23) ونظير ذلك قوله (**وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ**) (الطور 21) .

قال رسول الله ﷺ (إِنَّ اللهَ لَيَرْفَعُ ذُرِّيَّةَ المؤمنِ إليه في درجتِهِ، **وإنْ كانوا دونَهُ في العملِ لتَقَرَّ بِهِمْ عينُهُ**، ثمَّ قَرَأَ: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ} الآية، ثم قال: وما نقَصْنا الآباءَ بما أعطينا البنينَ)[2] .

قال ابن عاشور ذلك (زيادة الإكرام بأن **جعل أصولهم وفروعهم وأزواجهم** متأهلين لدخول الجنة في الدرجة التي هم فيها؛ **فمن كانت** مرتبته دون مراتبهم **لحق بهم**، ومن كانت مرتبته فوق مراتبهم **لحقوا هم به**، فلهم الفضل في الحالين)[3] .

قوله (وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ) (24) ثبت في تفسير هذه الآية ما روي عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (**إن أول ثلة تدخل الجنة الفقراء المهاجرون الذين تتقى بهم المكاره** ، إذا أمروا سمعوا وأطاعوا ، وإن كانت لرجل منهم حاجة إلى السلطان لم تقض له حتى يموت وهي في صدره ، وأن الله تعالى **يدعو يوم القيامة الجنة** ، فتأتي بزخرفها وريها فيقول : أين عبادي الذين قاتلوا في سبيل الله وقتلوا في سبيلي وأوذوا في سبيلي وجاهدوا في سبيلي؟ ، ادخلوا الجنة ، فيدخلونها بغير حساب ولا عذاب ، فتأتي الملائكة فيقولون : ربنا نحن نسبح لك الليل والنهار ونقدس لك من هؤلاء الذين آثرتهم علينا ؟ ، فيقول الرب تبارك وتعالى : **هؤلاء الذين قاتلوا في سبيلي وأوذوا في سبيلي** ، فتدخل عليهم الملائكة من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار)[4].

وهكذا نجد درجات الصابرين ابتغاء وجه الله **تفضل درجات الملائكة** في الآخرة ، والملائكة تلحق بهم تطيب مجلسهم وتسلم عليهم ، وتهنئهم جزاء ما صبروا ، فكأن الصبر ليس فقط **نصف الإيمان** كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ

---

[1]) نظم الدرر ج4 ص 347

2)أخرجه البزار في كشف الأسرار ، والهيثمي 2260 والحاكم ج2ص409 رقم 3744 والبيهقي ج10 ص 268 رقم21080، 21826 وصححه الألباني من رواية عبد الله بن عباس : السلسلة الصحيحة رقم 647/5 رقم 2490 ، وانظر صحيح كنوز السنة النبوية ج5 ص 489 رقم 2490

3) التحرير والتنوير ج12 ص 177

[4]) رواه الحاكم في المستدرك ج2 ص 81 رقم 3493 وصححه الألباني : السلسلة الصحيحة المجلدات ج6 ص 58 رقم 2559

، بل هو **السبب الرئيسي لدخول الجنة** ، وغيره من الأعمال والحسنات **لم يكن مباشرا** لتحقيق هذه النتيجة مثل الصبر .

المسألة الرابعة : صفات ناقضي الميثاق

قوله (وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ) (25) فالعلاقة بين قطع الأرحام والإفساد في الأرض حتمية ، **فمن لا يصل رحمه لا خير فيه مع غيرهم** ، ونظير ذلك قوله تعالى (**فَهَلْ عَسَيْتُمْ** إِنْ تَوَلَّيْتُمْ **أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ** (22) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ) (محمد/22-23) ، قال رسول الله ﷺ (**لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَاطِعُ رَحِمٍ**)[1]

قال الرازي (والمراد به قطع كل ما أوجب الله وصله ، ويدخل فيه وصل الرسول بالموالاة والمعاونة ووصل المؤمنين ، ووصل الأرحام ، ووصل سائر من له حق)[2]، وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (**لَا يَسْأَلُ رَجُلٌ مَوْلَاهُ مِنْ فَضْلٍ هُوَ عِنْدَهُ ، فَيَمْنَعُهُ إِيَّاهُ إِلَّا دُعِيَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَضْلُهُ الَّذِي مَنَعَهُ شُجَاعًا أَقْرَعَ**)[3]، فقوله (مولاه) المراد بالمولى القريب أي ذو القربى وذو الأرحام (من فضل) أي المال الفاضل من الحاجة (فيمنعه إياه) أي لا يعطي المولى الفضل الرجل (شجاعا أقرع) قال الخطابي الشجاع الحية والأقرع هو الذي انحسر الشعر من رأسه من كثرة سمه)[4].

وليس من تقطيع الأرحام اجتناب مجالس السوء والغيبة والنميمة والوقيعة بين الناس ، وذلك بقدر الحاجة لذلك ، وإن ترتب على ذلك قلة الصلة من باب الاحتراز ، وذلك من البلاء عند بعض الناس فليصبروا ،وليتحينوا الفرص للصلة إذا أمن الفتنة عند أهل السوء ولو كانوا أقربائهم [5].

المسألة الخامسة : عاقبة الدنيا والآخرة

قوله (اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ) (26) لما كان سبب جدال الذين كفروا مع النبي ﷺ وعنادهم معه حبهم للدنيا ، بل وافتتانهم بها ، فتنافسوها بينهم ، ولأجل ذلك عاندوا الرسل ، وقطعوا الأرحام وأنشأوا العداوة بينهم ، وأفسدوا في الأرض ، بينت الآية أن الله سبحانه **هو الذي يقسم الأرزاق بين خلقه ليختبرهم بها** ، قال ابن عاشور (والرزق ما يناله الإنسان من موجودات هذا العالم التي يسد

---

[1]) رواه مسلم ج12 ص 409 رقم 4647
[2]) تفسير الرازي ج9 ص 176
[3]) رواه أبو داود ج13 ص 350 رقم 4473 وصححه الألباني : صحيح وضعيف سنن أبي داود ج11 ص 139 رقم 5139
[4]) عون المعبود ج14 ص 33
[5]) هذا هو المفتى به : انظر الشيخ المنجد ، https://almunajjid.com/speeches/lessons/54

بها ضروراته وحاجاته وينال بها ملائمة، فيطلق على كل ما يحصل به سد الحاجة في الحياة من الأطعمة والأنعام والحيوان والشجر المثمر والثياب وما يقتنى به ذلك من النقدين)[1] .

قوله (..وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا..) (26) ذكرت الآية الفرح بالحياة الدنيا على سبيل الذم ، لأن **الفرح بها يوجب الاطمئنان ثم الغفلة** ، يقول ابن كثير (يذكر تعالى أنه هو الذي يوسع الرزق على من يشاء، ويقتره على من يشاء، لما له في ذلك من الحكمة والعدل ، وفرح هؤلاء الكفار بما أوتوا في الحياة الدنيا **استدراجا لهم وإمهالا** كما قال تعالى: (**أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لا يَشْعُرُونَ**) [المؤمنون/ 55، 56]

والفرح بهذا المعنى هو **البطر** ، ولذلك استحق الذم ، قال ابن عاشور (الفرح المنهي عنه هو **المفرط منه**، أي الذي تمحض للتعلق بمتاع ولذات النفس به، لأن **الانكباب** على ذلك يميت من النفس الاهتمام بالأعمال الصالحة والمنافسة لاكتسابها فينحدر به التوغل في الإقبال على اللذات إلى حضيض الإعراض عن الكمال النفساني والاهتمام بالآداب الدينية)[2]

ولذلك جعل الله غاية المسلم الدار الآخرة فهي مبتغاه وليس الحياة الدنيا ، فقال (**وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ**) ، أما الذين يفرحون بالحياة الدنيا فقد أكد الله ذم حالهم وأشخاصهم فقال (**إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ**) أي المفرطين في الفرح فإن صيغة (فعل) صيغة مبالغة مع الإشارة إلى تعليل النهي ، فالجملة علة للتي قبلها، والمبالغة في الفرح تقتضي شدة الإقبال على ما يفرح به **وهي تستلزم الإعراض عن غيره** ، فصار النهي عن شدة الفرح رمزا إلى الإعراض عن الجد والواجب في ذلك .

والإسلام علمنا أدب التعامل مع نعم الله تعالى في الحياة الدنيا ، فالمسلم لا ينبهر بالدنيا رغم أنها نعمة من الله ،ولا يحزن على خسارتها ، كما في قوله (**لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ**) (الحديد 23) ، فالمسلم يشعر **باتزان نفسي** إزاء نعم الله وابتلاءاته ، ففي كلا الحالتين هو راضي ومستقر نفسيا ، لا يبالي ما جاءه أو فقده من نعم الله ، لأنه في كل الأحوال منعم عليه ، فنعمة واحدة من نعم الله يعجز عن إحصائها فضلا عن شكر الله عليها ، كما قال (وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا) (إبراهيم 34) .

قوله (..وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلا مَتَاعٌ) (26) وما هذه الحياة الدنيا بالنسبة للآخرة إلا شيء قليل يتمتع به، (سُرعان ما يزول)[3] ، وفي ذلك تحقير لشأن الحياة الدنيا بالنسبة إلى ما ادخره تعالى لعباده المؤمنين في الدار الآخرة ، قال رسول الله ﷺ (**مَا مَثَلُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَثَلُ مَا يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ إِصْبَعَهُ فِي الْيَمِّ فَلْيَنْظُرْ بِمَ يَرْجِعُ**)[4] ، أي أنها لا تساوي شيئا بالنسبة لنعيم الآخرة .

---

[1]) التحرير والتنوير ج1 ص 232
[2]) التحرير والتنوير ج20 ص 107
[3]) التفسير الميسير ج4 ص 237
[4]) رواه ابن ماجة ج12 ص 132 رقم 4098 وصححه الألباني : صحيح ابن ماجة ج2 ص 394 رقم 3316 وأخرجه مسلم

فحقيقة الدنيا أهون ما يظنه المرء ، فهي بالنسبة للمسلم لا شيء ، ولذلك مثلها النبي ﷺ بشاة ميتة ، فعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِذِي الْحُلَيْفَةِ فَإِذَا هُوَ **بِشَاةٍ مَيِّتَةٍ** شَائِلَةٍ بِرِجْلِهَا فَقَالَ أَتُرَوْنَ هَذِهِ هَيِّنَةً عَلَى صَاحِبِهَا **فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَلدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللَّهِ مِنْ هَذِهِ عَلَى صَاحِبِهَا** وَلَوْ كَانَتْ الدُّنْيَا تَزِنُ عِنْدَ اللَّهِ **جَنَاحَ بَعُوضَةٍ** مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا قَطْرَةً أَبَدًا)[1].

وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَرَّ بِالسُّوقِ دَاخِلًا مِنْ بَعْضِ الْعَالِيَةِ وَالنَّاسُ كَنَفَتَهُ فَمَرَّ **بِجَدْيٍ أَسَكَّ مَيِّتٍ** فَتَنَاوَلَهُ فَأَخَذَ بِأُذُنِهِ ثُمَّ قَالَ أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنَّ هَذَا لَهُ بِدِرْهَمٍ فَقَالُوا مَا نُحِبُّ أَنَّهُ لَنَا بِشَيْءٍ وَمَا نَصْنَعُ بِهِ قَالَ أَتُحِبُّونَ أَنَّهُ لَكُمْ قَالُوا وَاللَّهِ لَوْ كَانَ حَيًّا كَانَ عَيْبًا فِيهِ لِأَنَّهُ أَسَكُّ فَكَيْفَ وَهُوَ مَيِّتٌ فَقَالَ فَوَاللَّهِ لَلدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللَّهِ مِنْ هَذَا عَلَيْكُمْ)[2].

وقد ظهر أثر علم النبي ﷺ بحقيقة الدنيا في تصرفاته فلم يكترث بها ، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ **اضْطَجَعَ** رَسُولُ اللَّهِ ﷺ **عَلَى حَصِيرٍ فَأَثَّرَ فِي جَنْبِهِ** فَلَمَّا اسْتَيْقَظَ جَعَلْتُ أَمْسَحُ جَنْبَهُ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلَا آذَنْتَنَا حَتَّى نَبْسُطَ لَكَ عَلَى الْحَصِيرِ شَيْئًا فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ **مَا لِي وَلِلدُّنْيَا مَا أَنَا وَالدُّنْيَا إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ الدُّنْيَا كَرَاكِبٍ ظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا**)[3].

المسألة السادسة : استمرار الكفار في المجادلة بالباطل

قوله (وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ) (27) تلك هي **متلازمة الكفر** بالله ، حيث كان الكفر **اقترن معه الجدال** والمراء بالباطل واقتراح الآيات ، ولذلك أعاد القرآن التذكير بمقترحات الكفار ، ليعلم أنهم لن ينتهوا عن الجدل متى كانوا كفارا مرة بعد مرة إلى غير منتهى .

قال ابن عاشور (قولهم ذلك يتضمن أنهم لم يعدوا القرآن آية من الله)[4] ، قال ابن القيم (أجابهم سبحانه عن سؤالهم ترك إنزال آيات الاقتراح بجوابين :-

أحدهما أنها لا توجب إيمانا بل الله هو الذي يهدي من يشاء ويضل من يشاء لا الآيات التي اقترحتموها .

الثاني أنه نبههم على أعظم الآيات وأشدها اقتضاء للإيمان وأنها في اقتضائها للإيمان أبلغ من الآيات التي تقترحونها وهي كتابه الذي هو ذكره وما تضمنه من الحق الذي تطمئن إليه القلوب وتسكن إليه النفوس)[5].

المسألة السابعة : اطمئنان قلب المؤمن بذكر الله

[1]) رواه ابن ماجة ج12 ص 134 رقم 4100 وصححه الألباني : صحيح ابن ماجة ج2 ص 394 رقم 3318
[2]) رواه مسلم ج14 ص 206 رقم 5257
[3]) رواه أحمد ج8 ص 60 رقم 3525 وصححه الألباني : السلسلة الصحيحة ج1 ص 800 رقم 438
[4]) التحرير والتنوير ج12 ص 181
[5]) الصواعق المرسلة ج2 ص 742

قوله (الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ) (28) ربطت الآية الإيمان باطمئنان القلب ، ما ينفي أن يكون ثمة فرصة لحصول الإيمان باقتراح الآيات ، فالقرآن تضمن الحق الذي تسكن به النفس ويطمئن به القلب ، قال ابن القيم (ولو كان باطلا لم يزد القلوب إلا شكا وريبا ، فإن **الكذب ريبة والصدق طمأنينة** ، فلو كانت كلماته وألفاظه لا تفيد اليقين بمدلولها لم تطمئن به القلوب فإن **الطمأنينة هي سكون القلب إلى الشيء ووثوقه به ، وهذا لا يكون إلا مع اليقين بل هو اليقين بعينه**)[1].

وقد ربط صاحب الظلال بين أولي الأرباب ومن تطمئن قلوبهم ، فقال (وهكذا **تقرر بشهادة الله أن الذين يستجيبون له هم أولو الألباب ، وهؤلاء تطمئن قلوبهم بذكر الله** ، وتتصل بما هي عارفة له ومصطلحة عليه بفطرتها العميقة ، فتسكن وتستريح)

وهذا هو ما دل عليه حديث النبي ﷺ (يَا وَابِصَةُ اسْتَفْتِ نَفْسَكَ **الْبِرُّ مَا اطْمَأَنَّ إِلَيْهِ الْقَلْبُ وَاطْمَأَنَّتْ إِلَيْهِ النَّفْسُ وَالْإِثْمُ مَا حَاكَ فِي الْقَلْبِ وَتَرَدَّدَ فِي الصَّدْرِ** وَإِنْ أَفْتَاكَ النَّاسُ قَالَ سُفْيَانُ وَأَفْتَوْكَ)[2]

قال العلامة ابن باز (وهذا يُفيد أن المؤمن يتحرَّى ما تطمئن له القلوب، وتضع له الدلائل الدالة على سلامته، وأمَّا ما كانت فيه شبهة، وفيه تردد؛ فالأولى بالمؤمن تركه، والتَّعفف عنه، والورع عن اقترافه؛ حمايةً لدينه، وحرصًا على سلامة دينه؛ لأنه متى تساهل بالشّبهات ولم يُبال بالورع وقع في الحرام) [3]

قال ابن عاشور والاطمئنان: السكون، واستعير هنا لليقين وعدم الشك، لأن الشك يستعار له ، وهذا وصف **لحسن حال المؤمنين** ومقايسته بسوء حالة الكافرين الذين غمر الشك قلوبهم)[4] قال تعالى (**بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا**) [المؤمنون: 63] ، وقال (واختير المضارع في "تَطْمَئِنُّ" مرتين لدلالته على **تجدد الاطمئنان واستمراره** وأنه لا يتخلله شك ولا تردد ، وافتتحت جملة "أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ" **بحرف التنبيه** اهتماما بمضمونها وإغراء بوعيه. وهي بمنزلة التذييل لما في تعريف (الْقُلُوبُ) من التعميم. وفيه إثارة الباقين على الكفر على أن يتسموا بسمة المؤمنين من التدبير في القرآن لتطمئن قلوبهم، كأنه يقول: **إذا علمتم راحة بال المؤمنين** فماذا يمنعكم بأن تكونوا مثلهم فإن تلك في متناولكم لأن ذكر الله بمسامعكم)[5].

وفي تعريف الطمأنية قال ابن القيم (الطمأنينة إلى الله سبحانه حقيقة ترد منه سبحانه على قلب عبده تجمعه عليه وترد قلبه الشارد إليه حتى **كأنه جالس بين يديه** يسمع به ويبصر به ويتحرك به ويبطش به ، فتسرى تلك الطمأنينة في **نفسه وقلبه ومفاصله وقواه الظاهرة والباطنة** تجذب روحه إلى الله ويلين جلده وقلبه ومفاصله إلى خدمته والتقرب إليه

---

[1]) الصواعق المرسلة ج2 ص 742
[2]) رواه أحمد ج36 ص 438 رقم 17315
[3]) https://binbaz.org.sa/audios/2525/202-
[4]) التحرير والتنوير ج12 ص 182
[5]) التحرير والتنوير ج12 ص 182

، ولا يمكن حصول الطمأنينة الحقيقية إلا بالله وذكره وهو كلامه الذي أنزله على رسوله، كما قال تعالى (الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب)

فإن طمأنينة القلب سكونه واستقراره بزوال القلق والانزعاج والاضطراب عنه وهذا لا يتأتى بشيء سوى الله تعالى وذكره البتة ، وأما ما عداه فالطمأنينة إليه غرور والثقة به عجز ، قضى الله سبحانه وتعالى قضاء لا مرد له أن **من اطمأن إلى شيء سواه أتاه القلق والانزعاج والاضطراب من جهته كائنا من كان** بل لو اطمأن العبد إلى علمه وحاله وعمله سبله وزايله ، وقد جعل سبحانه نفوس المطمئنين إلى سواه أغراضها بسهام البلاء ليعلم عباده وأولياؤه أن **المتعلق بغيره مقطوع والمطمئن إلى سواه عن مصالحه ومقاصده مصدود وممنوع**)[1].

وقال (وحقيقة الطمأنينة التي تصير بها النفس مطمئنة أن **تطمئن في باب معرفة أسمائه وصفاته ونعوت** كما له إلى خبره الذي أخبر به عن نفسه ، وأخبرت به عنه رسله ، **فتتلقاه بالقبول والتسليم والإذعان وانشراح الصدر له وفرح القلب به** فإنه .. فلا يزل القلب في أعظم القلق والاضطراب في هذا الباب حتى يخالط الإيمان بأسماء الرب تعالى وصفاته وتوحيده وعلوه على عرشه وتكلمه بالوحي بشاشة قلبه ، فينزل ذلك عليه نزول الماء الزلال على القلب الملتهب بالعطش فيطمئن إليه ويسكن إليه ويفرح به ويلين له قلبه ومفاصله ، حتى كأنه شاهد الأمر كما أخبرت به الرسل بل يصير ذلك لقلبه بمنزلة رؤية الشمس في الظهيرة لعينه فلو خالفه في ذلك من بين شرق الأرض وغربها لم يلتفت إلى خلافهم)

وقال (فهذا **أول درجات الطمأنينة** ثم لا يزال يقوى كلما سمع بآية متضمنة لصفة من صفات ربه **وهذا أمر لا نهاية له** فهذه الطمأنينة أصل أصول الإيمان التي قام عليه بناؤه ثم يطمئن إلى خبره عما بعد الموت من أمور البرزخ وما بعدها من أحوال القيامة حتى كأنه يشاهد ذلك كله عيانا ، وهذا حقيقة اليقين الذي وصف به سبحانه وتعالى أهل الإيمان حيث قال "**وبالآخرة هم يوقنون**" فلا يحصل الإيمان بالآخرة حتى يطمئن القلب إلى ما أخبر الله سبحانه به عنها طمأنينته ! إلى الأمور التي لا يشك فيها ولا يرتاب، فهذا هو المؤمن حقا باليوم الآخر كما في حديث حارثة أصبحت مؤمنا فقال رسول الله إن لكل حق حقيقة فما حقيقة إيمانك قال **عزفت نفسي عن الدنيا وأهلها** وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزا وإلى أهل الجنة يتزاورون فيها وأهل النار يعذبون فيها فقال عَبَّدَ نورُ اللهِ قلبَه)[2].

قوله (الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ) (29) "طوبي" مصدر "طاب" ، فأهل الإيمان في **طيب الحال** ، أي في الدنيا بذلك الاطمئنان ، وخير حال كذلك في الآخرة **بحسن اللقاء مع الله** ، وفي هذا المعنى أحاديث كثيرة منها :-

- قال رسول الله ﷺ (**طوبى لمن هدي إلى الإسلام وكان عيشه كفافا وقنع**)[3]
- وقال ﷺ (طوبى لمن طال عمره وحسن عمله)[4]

---

[1]) الروح ج1 ص 220
[2]) الروح ج1 ص 221
[3]) رواه ابن حبان في صحيحه ج2 ص 480 رقم 705 ، ورواه الترمذي ج ص رقم وصححه الألباني : صحيح وضعيف سنن الترمذي ج5 ص 349 رقم 2349
[4]) رواه الطبراني وصححه الألباني صحيح وضعيف الجامع الصغير ج3 ص 450 رقم 7375

- وقال رسول الله ﷺ (**طوبى لمن ملك لسانه ووسعه بيته وبكى على خطيئته**) [1]
- وقال النبي ﷺ (طوبى لمن وجد في صحيفته استغفارا كثيرا)[2].

1) رواه الطبراني في الأوسط والصغير وحسن إسناده وقال الألباني حسن لغيره صحيح الترغيب والترهيب ج3 ص 27 رقم 2740
2) رواه ابن ماجة وصححه الألباني : صحيح وضعيف سنن ابن ماجة ج8 ص 318 رقم 3818

المحور الخامس

الرسول جاء بقرآن هو منهج حياة للأمم ، وليس بآلة تخرق عاداتهم الطبيعية

قال تعالى (كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ **يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ** قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ (30) وَلَوْ أَنَّ **قُرْآنًا** سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَيْئَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا **قَارِعَةٌ** أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ (31) وَلَقَدِ **اسْتُهْزِئَ** بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ (32) أَفَمَنْ هُوَ **قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ** بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ **سَمُّوهُمْ** أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا **مَكْرُهُمْ** وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (33) لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ **أَشَقُّ** وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ (34) مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي **وُعِدَ الْمُتَّقُونَ** تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ (35)

استبان من الآيات خطة الكفار في الترويج لمنهج الكفر بالله ، فهم يكفرون بالرحمن ، وإن كانوا يقرون بربوبيته إلا أنهم ينتزعون من صفات الربوبية هذه الصفة على وجه الخصوص ، فينكرون أن يكون الله هو الرحمن الرحيم ، ينسبون له صفات البطش والغضب والانتقام من الأعداء ، وكذلك الغنى والرزق والعطاء ، أما الرحمة فإن عقيدتهم لا تعترف لله بهذا الاسم ولا الاتصاف بصفة الرحمة ، ما يعني أنهم يريد أن يخلو الدين من الرحمة.

فاشتقوا لأصنامهم أسماء بعضها يدل على ذات المعنى من أسماء نسبها المسلمون لله مع الفارق بين المفهوم العقائدي في الإسلام وعندهم عدا اسم الرحمن الذي لم يستدل على تسمية لأصنامهم به ، من ذلك ما يلي[1] :-

العُزَّى :من "العزيز"، وهي تأنيث "الأعز"، وكانوا يعتقدون أنها إلهة القوة والحماية.

اللَّات :اشتقها المشركون من اسم "الله" بتأنيثه، وكانت صخرة بيضاء تعبدها قبيلة ثقيف في الطائف.

مَنَاة :اشتُقت من "المني" وهو القدر أو القضاء، حيث عبدتها قبائل خزاعة معتقدين أنها إلهة الموت والقدر والمصير.

ناف :صنم اشتُق اسمه من صفة (العلو والارتفاع)، وهو من أسماء الله الحسنى (المتعالي) أو دلالة على العظمة.

رضاء :صنم لبني ربيعة بن كعب، اشتُق من صفة (الرضا)

أساف :اختلف المفسرون في اشتقاقه، لكنه نُسب إلى الأسف والذل.

هبل :أعظم أصنام قريش في الكعبة ، أُخذت من لفظة (الإله) مسبوقة بأداة التعريف القديمة

---

[1]) انظر : محمد مبروك نافع : عصر ما قبل الإسلام : وثنية العرب وأصنامهم ص 171 -176
تعرف على أصنام العرب حسب القبائل.. ما يقوله التراث الإسلامي :مقال في جريدة اليوم السابع كتبه :د أحمد إبراهيم الشريف الروائي ورئيس قسم الثقافة باليوم السابع . حاصلٌ على درجة الدكتوراه في النقد العربي وتحليل الخطاب
www.youm7.com/story/2020/8/44912153/تعرف-على-أصنام-العرب-حسب-القبائل-ما-يقوله-التراث-الإسلامى/

والإسلام اعتنى باسم الله (الرحمن) وجعله قرين أي تسمية ، وابتدأت به سورة الفاتحة ، ويقرأ كل صلاة ، يقول رسول الله ﷺ (مَنْ لَا يَرْحَمُ لَا يُرْحَمُ)[1] ، وذلك بصدد اعتراض الأقرع بن حابس لتقبيل النبي ﷺ الحسن بن علي ، فَقَالَ الْأَقْرَعُ إِنَّ لِي عَشَرَةً مِنْ الْوَلَدِ مَا قَبَّلْتُ مِنْهُمْ أَحَدًا ، فنظر إليه النبي ﷺ وقال له هذه المقالة .

وتجد من جهة أخرى أن كفرهم بصفة الرحمن يتجسد في مناهجهم الحياتية سواء في مجال التجارة أو الصناعة أو السياسة أو العسكرية ،فلا تجد أثرا للرحمة في هذه المجالات ، بل إنهم يحسبون كل شيء بحسابات مادية بغيضة ، حتى أنهم ينظرون إلى كتاب الله المعجز على أنه إعجاز تكنولوجي يمكن تحريك الجبال به ، أو إنه إعجاز جيولوجي بحيث تتغير خرائط العالم ، فتصبح أنهارا وبروجا وجزرا بينها ، فيعيش الناس في رخاء ورفاهية أو إنه إعجاز بيولوجي بحيث يمكن به إحياء الموتى أو زراعة أعضائهم من جديد وإعادة الروح فيهم بعدما خرجت من أجسادهم أو إعجاز فيزيائي من خلاله يمكن التواصل مع أرواحهم والحديث معهم وهم أموات .....الخ ، إلى غير ذلك من خيالات يقتروحونها على النبي ﷺ ليثبت لهم نبوته ، وهي في الحقيقة نابعة من أفلام الكرتون التي تربوا عليها التي لا تمت لحياة البشر ومناهجه التربوية بصلة .

فهؤلاء الكفار الذين ينظرون للقرآن هذه النظرة يظنون أنه إن لم يكن فيه مثل هذا الإعجاز المبهر لعقولهم السخيفة ، فإنه لا إعجاز فيه ، قال ابن عباس وغيره : إن الكفَّار قالوا للنبيّ ﷺ : أَزِحْ عَنَّا وَسَيِّرِ جَبَلَيْ مَكَّةَ ، فَقَدْ ضَيَّقَا عَلَيْنَا ، واجعل لَنَا أَرْضَنَا قِطَعَ غِرَاسَةٍ وَحَرْثٍ ، وَأَحْيِ لَنَا آبَاءَنَا وَأَجْدَادَنَا ، وَفُلاَناً وفُلاَناً ، فنزلَتِ الآيةُ في ذلك معلمةً أنهم لا يُؤْمِنُونَ ، ولو كان ذلك كله)[2] ، أي جبلي قبيس وقعيقعان اللذين يسدان الطريق على أهل مكة.

فتضاريس مكة وعرة بالجبال مما يقيع التوسع العمراني والزراعي فيها ، فهي محاطة بالجبال من جهاتها الأربع ، ودعوة الإسلام وإن جاءت لتصلح حياة الناس في الدنيا والآخرة ، فذلك من خلال العبودية لله ، بأن تنتج إنسانا عابدا لله قادرا على إصلاح حاله ومجتمعه وبلاده ، كما قيل لا تعطيني رغيفا ولكن علمني كيف أصنع الرغيف .

فهؤلاء لا يدركون كنه الإعجاز الذي نزل به القرآن بأنه منهج حياة ، يحقق الطمأنينة التي تفتقر إليها نفوسهم ، فهؤلاء أقرب للجدل منه إلى معرفة الحقيقة واستقصاء المعلومات ، ولذلك وجب عقابهم بقارعة تحل بهم أو قريبا منهم ليعتبر الناس بما حصل لهم ، فلا يستهزئون بالوحي الذي هم مكلفون بالعمل به في حياتهم .

---

[1]) رواه البخاري ج18 ص 403 رقم 5538
[2]) تفسير الثعالبي ج2 ص 292 ، المحرر الوجيز لابن عطية ج4 ص 80

ولكن الله يملي الظالم ولا يهمله ، ولكن الذين كفروا لا يدركون استدراج الله لهم ، فيظلون على شركهم ، ومكرهم ، وصدهم عن سبيل الله ، ولا ينالهم في الدنيا من نصيب غير العذاب النفسي والقلق والاكتئاب ، ولا شك أنهم ليس لهم حظ في الآخرة إلا ما هو أشق من تعاستهم في الدنيا ، بينما أهل الطمأنينة بذكر الله أولوا الألباب ، هؤلاء لهم عقبى الدار ، وعقبى الكافرين النار .

قوله (كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ..) (30) أي لم يأت أحد من الرسل قبلك بما يحقق أحلام قومه التي تكاد تتلخص في تمهيد الدنيا لتكون مركبا لهم أو تعبيد طرقها وإزالة الشوك منها لتكون مرصوفة بالحرير والأزهار للسائرين

بل جاء الرسل من قبلك بوظيفة واحدة ، حيث لخصت هذه الآية وظيفة الرسول ﷺ ، فالله لم يرسله إليهم ليجمع مقتراحاتهم ، ويوصلها لله فيستجيب لهم ، وإنما أرسله الله في زمن خلا من الرسل ، وانقطع فيه الوحي زمنا ، فجاء لهم بهذا القرآن ليتلوه عليهم تلاوة مفسرة ، فتعيه أسماعهم ، وليعلموا أنه وحي من الله إليهم فيعملوا به ، وتقام الحجة علي من لم يعمل به .

قوله (..وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ) (30) أي أن أهل الجاهلية عندما نظروا للقرآن وما فيه من آيات استوقفهم كثيرا لفظ (الرحمن) فهم لا يعرفون ذلك الاسم ، قال تعالى (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ **اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا**)(الفرقان60) ، فقد اشتهر عنهم تسمية (اللات) نسبة للإله ، و(العزى) نسبة للعزيز ، و(مناة) نسبة إلى الموت ، لكنهم يجهلون صفة الرحمن ، ولم يظنوا يوما أن الإله يتصف بصفة الرحمن ، فظنوها صفة نقص وضعف ، فعلام يرحم الملك الجبار المنتقم من يتجاوز في حقه أو يعصيه ، وهكذا استبان هوان عقيدتهم التي خلت من الرحمن ، واستبان بجلاء الخلل الشديد في تقديرهم لصفات الله بما يعني الكمال والجلال في آن واحد ، وكيف أنهم يمنعون عنه الاتصاف بصفة الرحمة التي تكتمل بها صفاته وأسمائه الحسنى ، ثم هم ينسبون له صفات النقص بعد ذلك .

فقد جهل العرب قبل الإسلام صفة الرحمن ، وظلوا علي جهلهم بعد الإسلام حتى أثناء مجادلتهم للنبي ﷺ لما أن أراد النبي ﷺ أن يعقد معهم صلح الحديبية جهروا بإنكار صفة الرحمن للإله ، فمنعوه بأن يبدأ صحيفة الصلح بقوله (بسم الله الرحمن الرحيم) ما يدل على أن عقائدهم خالية من المعنى الصحيح للتعبد والتزلف للرحمن ، فعن قتادة –

رضي الله عنه – في قوله (وهم يكفرون بالرحمن) قال : ذكر لنا « أن رسول الله ﷺ زمن الحديبية – حين صالح قريشاً ، كتب في الكتاب » بسم الله الرحمن الرحيم ، فقالت قريش : **أما الرحمن فلا نعرفه** ، وكان أهل الجاهلية يكتبون : باسمك اللهم ، فقال أصحابه : دعنا نقاتلهم ، قال : لا ، ولكن اكتبوا كما يريدون "[1] ، قال حقي في قوله (وهم يكفرون بالرحمن) إشارة إلى أن المنعم عليه يجب أن لا يكفر بل يشكره بالايمان والاعتقاد)[2].

ولعل سبب هذا الإنكار لصفة الرحمن أنهم يعبدون الجن اتقاء شره ، والجن في ظنهم لا يعرف الرحمة ، من هنا نفوا صفة الرحمن في حق للإله ، كما في قوله (**بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ**) (سبأ 41).

قوله (..قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ..)(30) قال القاسمي :أي (**هو الرحمن الذي كفرتم به وأنكرتم معرفته**) [3]، فذلك هو التوحيد الخالص لله ، والذي يسميه العلماء بتوحيد الأسماء والصفات ، ويتبعه توحيد الألوهية ،وهو توحيد العمل ، والذي به يتحقق التوكل عليه وحده .

فالرحمة صفة للرحمن ، وقد جعل الله تراحم الخلائق بعضها البعض من اسمه ، فقال ﷺ (جَعَلَ اللَّهُ الرَّحْمَةَ مِائَةَ جُزْءٍ فَأَمْسَكَ عِنْدَهُ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ جُزْءًا وَأَنْزَلَ فِي الْأَرْضِ جُزْءًا وَاحِدًا فَمِنْ ذَلِكَ الْجُزْءِ يَتَرَاحَمُ الْخَلْقُ حَتَّى تَرْفَعَ الْفَرَسُ حَافِرَهَا عَنْ وَلَدِهَا خَشْيَةَ أَنْ تُصِيبَهُ)[4] ، ومن صور الرحمة صلة الأرحام ، ولذلك اشتق الله لها اسما من أسمائه ، قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ (أَنَا الرَّحْمَنُ خَلَقْتُ الرَّحِمَ وَشَقَقْتُ لَهَا اسْمًا مِنَ اسْمِي فَمَنْ وَصَلَهَا وَصَلْتُهُ وَمَنْ قَطَعَهَا بَتَتُّهُ)[5].

قوله (..عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ)(30) أي إذا تعرف العبد على الإله الحق ، وعرف أسماءه وصفاته ، تبع ذلك توحيده عملا بإخلاص القلب له ،والتوكل عليه في كل عمل ، ثم الاستغفار والتوبة بعد كل عمل مخافة أن يشوبه رياء أو تقصير ، قال صاحب الظلال : أي (وما عليك إلا أن تتلو عليهم الذي أوحينا إليك ، فلهذا أرسلناك ، فإن يكفروا فأعلن لهم أن اعتمادك على الله وحده ، وأنك تائب إليه وراجع ، لا تتجه إلى أحد سواه)[6] .

قوله (وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا) أبانت هذه الآية حقيقة هذا الكتاب ، وأنه ليس طلاسم سحرية ولا تعاويذ شيطانية ولا خرافة أسطورية ، إنما هو كلام الله تعالى المنزه عن ذلك كله

---

[1]) الدر المنثور ج6 ص 13
[2]) تفسير حقي ج6ص269
[3]) الوجيز للواحدي ج1 ص 384
[4]) رواه البخاري ج18 ص 407 رقم 5541
[5] رواه البيهقي في سننه الكبرى ج7 ص 26 رقم 13595 وصححه ابن حبان ج2 ص 187 والألباني : صحيح الترغيب والترهيب ج2 ص 337 رقم 2528
[6]) في ظلال القرآن ج4 ص 368

روي عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال : قال المشركون من قريش لرسول الله ﷺ: (لو وسعت لنا أودية مكة وسيرت جبالها فاحترثناها ، وأحييت من مات منا واقطع به الأرض ، أو كلم به الموتى . . . فأنزل الله تعالى (ولو أن قرآناً)[1]

وعن مجاهد قوله:(ولو أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى) ، قول كفار قريش لمحمد: سيِّر جبالنا تتسع لنا أرضُنا فإنها ضيِّقة، أو قرب لنا الشأم فإنا نَتَّجر إليها، أو أخرج لنا آباءنا من القبور نكلمهم ! فقال الله تعالى (ولو أن قرآنا ..) [2]

قال النيسابوري قيل أنها نزلت في نفر من مشركي مكة فيهم أبو جهل ابن هشام وعبد الله بن أبي أُمية المخزومي جلسوا خلف الكعبة فأرسلوا إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) فأتاهم فقال له عبد الله بن أبي أُمية : إن تشرك نتبعك فسيّر لنا جبال مكة بالقرآن ، فأذهبها عنا حتى تُفتح . فإنها ضيّقة ، واجعل لنا فيها عيوناً وأنهاراً حتى نغرس ونزرع فلست كما زعمت بأهون على ربك من داود حيث سخر له الجبال يسبح لربه ، أو سخّر لنا الريح فنركبها إلى الشام فنقضي عليه أُمورنا وحوائجنا ثم نرجع من يومنا . فقد كان سليمان سخرت له الريح ، فكما حملت لنا فلست بأهون على ربك من سليمان في داود .

وأحيي لنا جدك أيضاً ومن شئت من موتانا لنسأله أحق ما يقول أم باطل ؟ فإنّ عيسى قد كان يحيي الموتى ولست بأهون على الله منه ، فأنزل الله تعالى) ولو أن قرآناً سيرت به الجبال (وأذهبت عن وجه الأرض) أو قطعت به الأرض (أي شققت فجعلت أنهاراً وعيوناً)[3] .

فالقرآن ليس كتابا يحقق ما يأمله الكافرون المجادلون من آيات مادية ، فينقل به النبي ﷺ الجبال من أماكنها ، أو تتشقق به الأرض أنهارا وعيونا أو يتواصل به مع عالم الأرواح فيكلم الموتى ، حتى وإن كان هذا هو أمل الكافرين ، حتى يتسنى له أن يثبت نبوته لهم ، فذلك لا يعني شيئا للمسلمين ، وليس ذلك هو الإيمان المطلوب شرعا .

قوله (..أَفَلَمْ يَيْئَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا..) (31) قال ابن عاشور (استفهاما إنكاريا إنكارا لانتفاء يأس الذين آمنوا، أي فهم حقيقيون بزوال يأسهم وأن يعلموا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعا)[4] ، أي أن اليأس منتفي عن المؤمنين في مجال دعوتهم لله تعالى ، ورغم عناد قومهم ومجادلتهم ، فلا يرتهن إيمانهم باستجابة الله لهم بالإتيان بالمعجزات المقترحة ، بل لا يزال أمل المؤمنين معقود في أن يهدي الله بآياته هؤلاء القوم .

ورغم ذلك هناك من لا يؤمن ، رغم أن الجهد الدعوي لا يزال موصولا ، ونفوس الدعاة إلى الله لم تيأس من مجادلتهم وعنادهم ، وقد ظن بعض المسلمين أن قومهم قد يؤمنوا لو تحقق لهم ما يقترحون من معجزات ، ولكن الله أفهمهم ذلك ليس بحاصل بل الذي يحصل في هذا الفرض هو نقيض ذلك تماما ، قال تعالى (وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ الملائكة وَكَلَّمَهُمُ الموتى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً **مَّا كَانُواْ لِيؤمنوا**..) [الأنعام : 111].

---

[1]) الدر المنثور ج6 ص 14
[2]) تفسير الطبري ج16 ص 447
[3]) الكشف والبيان ج5 ص 292
[4]) التحرير والتنوير ج12 ص 187

كذلك لم يشأ الله أن يجعل الناس كلهم مؤمنين قسرا ، قال تعالى (**إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آَيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ**) (الشعراء 4) ، بل لا يزال منهم من يؤمن ومنهم من لا يؤمن ، قال السمين الحلبي (وذلك أنَّهم لَمَّا سألوا هذه الآياتِ طَمِعوا في إيمانِهم وطلبوا نزولَ هذه الايات ليؤمِنَ الكفار ، عَلِمَ اللهُ أنهم لا يؤمنون)[1] ، وقال الإمام البقاعي (والعلم بالشيء يوجب اليأس من خلافه ، لكنه لم يهدهم جميعاً فلم يشأ ذلك ، ولا يكون إلا ما شاءه ، فلا يزال فريق منهم كافراً)[2] .

قال ابن تيمية (**أَلَمْ يُيَئِّسْهُمُ الْعِلْمُ**، ﴿ أَنْ لَوْ يَشاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعاً وَلا يَزالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِما صَنَعُوا ﴾[3] ، أي أنهم مهما بذلوا من جهد دعوي فلن يخضع جميع الذين كفروا للإيمان ،- بل منهم من يظل على كفرهم- ، وهؤلاء يكونون نموذجا لأن ينزل عليهم غضب الرب سبحانه .

يقول سيد قطب (وفي ظل مجموع النصوص يتضح أن المقصود هو أنه لو شاء سبحانه لخلق الناس باستعداد واحد للهدى ، **أو لقهرهم على الهدى** ، ولكنه سبحانه شاء أن يخلقهم كما **خلقهم مستعدين للهدى أو للضلال**؛ ولم يشأ بعد ذلك أن يقهرهم على الهدى ولا أن يقهرهم على الضلال حاشاه! إنما جعل مشيئته بهم تجري من خلال استجابتهم أو عدم استجابتهم لدلائل الهدى وموحيات الإيمان)[4].

قوله (وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ[5] أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ) (31) علل الله القارعة بما صنعه الكفار المعاندين مع المسلمين من إيذاء بدني وقولي ، وهو ما جعل تماديهم فيما صنعوا يستوجب تغير الحكم الشرعي في المعاملة معهم ، فأضحى جهادهم بالسيف واجب ، وليس بالكلمة فقط كما سبق ، **فكانت معركة بدر أول قارعة لهم** ، ذلك أن الحق إذا لم تكن قوة تحميه فهو ضائع ، **فسلط الله عباده المؤمنين على أولئك الظالمين** ، وبعث النبي ﷺ جنوده ليغيروا على أعداء الله كالقارعة الغزوة تلو الأخرى والسرية وما بعدها من سرايا ، حتى أتم الله له فتح مكة بدون قتال .

فقوله (وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ ..) (31) بين الله تعالى أن ما صنعه الكفار ليس ببعيد عنه ، بل هو عليم به ، ويجازيهم عليه ، ولا يزال يجازيهم على ما صنعوا من إيذاء قولي وبدني للمسلمين وصد عن سبيل الله بما يقرعهم فيخيفهم ويهز وجدانهم ، وسيظلون على هذا الحال حتى يأتي وعد الله بالنصر التام للمسلمين .

والمقصود بالقارعة هنا في السياق السرايا التي يبعثها رسول الله ﷺ لتغير على أعداء الله ، فعن ابن عباس، في قوله:(ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة،) قال: **سَرِيَّة**)[6]، فلم يقل الغزوات ، فهي أشد على الكفار من

---

[1]) الدر المصون في علم الكتاب المكنون ج1 ص 2673
[2]) نظم الدرر ج4 ص 352
[3]) كتب ورسائل وفتاوى ابن تيمية في الفقه ج20 ص 35
[4]) في ظلال القرآن ج4 ص 380
5) قال الشنقيطي (جاء عن جماعة من السلف تفسير القارعة التي تصيبهم بسرية من سرايا رسول الله صلى الله عليه وسلم. انظر أضواء البيان ج2 ص 458
[6]) تفسير الطبري ج16 ص 456

السرايا ، فقد تكون السرية بقلة قليلة من الجنود ، ولكنها بالنسبة للكفار تصيبهم كالقارعة ، فتكون شديدة عليهم معنويا ونفسيا ، **فأقل حجر يلقيه أهل الحق يصيب أهل الباطل بالقارعة** .

وقوله (.. أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ ..) فعن مجاهد رضي الله عنه قال: "الْقَارِعَةُ" السرايا (أَوْ تَحُلُّ قَرِيباً مِنْ دَارِهِمْ) ، قال: الحديبية، – أو تحل أنت يا محمد قريباً من دارهم بجيشك كما حل بالحديبية [1]– من هنا علم الإسلام الصحابة التفاؤل بالخير ، فمن تفاءل خيرا وجد خيرا ، وكان في حلول رسول الله ﷺ بمعسكره بآلاف الصحابة بالحديبية قريب من مكة بشارة خير له وللمسلمين وقارعة تهز كيان المشركين ، فقد وجدوا لأول مرة أن للمسلمين جيش يتحرك به النبي ﷺ في الجزيرة العربية يمينا وشمال ، وأنه قادر على التحرك في أي مكان ، بل ويتأهب للقدوم عليهم .

وقوله (حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ) عن مجاهد قال: (فتح مكة)[2]. قال محمد ابن جرير الطبري في قوله (حتى يأتي وعد الله) ، قال: (فتح مكة)[3] .

وقوله (..إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ) (31) يستبين منه أن وعد الله الذين آمنوا بالتمكين في الأرض هو نظير سعيهم للتمكين والأخذ بأسباب التمكين ، **فهذا الوعد لا يخلفه الله متى لم يتخلفوا عن تحقيق شرائطه** ، فهو وعد لأولي الألباب الذين استجابوا لله ولرسوله ،والذين اطمأنت قلوبهم بذكر الله .

قوله (وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ) (32) (يُسَلِّي اللهُ تَعَالَى رَسُولَهُ عَمَّا يُلاَقِيهِ مِنْ تَكْذِيبِ قَوْمِهِ ، وَيَقُولُ لَهُ : لَقَدْ سَخِرَتْ الأَقْوَامُ البَائِدَةُ بِالرُّسُلِ الذِينَ أُرْسِلُوا إِلَيْهِمْ ، فَأَنْظَرَ اللهُ الذِينَ كَفَرُوا ، وَأَمْهَلَهُمْ مُدَّةً مِنَ الزَّمَنِ (فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ) ، ثُمَّ أَخَذَهُمْ ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِمْ عِقَابَهُ فَلَمْ يُفْلِتْ أَحَدٌ مِنْهُمْ مِنْ عِقَابِهِ . فَكَيْفَ كَانَ عِقَابُ اللهِ)[4].

ومحل استهزاء الكافرين بالرسل وأتباعهم أنهم يخبرونهم بأن الله سوف ينصرهم عليهم في الدنيا ، فينظر الكفار إلى ما عندهم من أسباب القوة المادية ، وينظرون إلى المسلمين في **تلك المرحلة الحرجة** وليس عندهم شيء من أسباب التمكين ، ولكن **دوام الحال من المحال** ، فالله وعد عباده المؤمنين أنهم إذا ما أخذوا بأسباب النصر فلابد وأن يمحق الكافرين ، وما إملاء الله الكافرين إلا لأمرين اثنين : – ، الأول أن ينظرهم ليتوبوا ، والثاني أن يستعد المؤمنين ، فلن ينصروا بالمعجزات ،وإنما بما عملته أيديهم من الأخذ بأسباب النصر ، فإذا تحقق ذلك وقد أنظر الله الكافرين فلم ينتهوا ،وترك للمسلمين وقتا ليعملوا لأجل النصر ، هنا لابد وأن تتحقق سنة الله الكونية بأن يأخذ الظالمين بغتة ، ولا يفلت أحد من عقابه .

---

[1]) تفسير الفخر الرازي ج1 ص 2603
[2]) تفسير الطبري ج16 ص 458
[3]) تفسير الطبري ج16 ص 456
[4]) الخصال الموجبة لدخول النار ج1 ص 428

قوله (أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ..) (33) عن قتادة (ذلكم ربكم تبارك وتعالى، **قائمٌ على بني آدمَ** بأرزاقهم وآجالهم، وحَفظ عليهم والله أعمالهم)[1] ، والمقصود من الكلام **عقد مقارنة** أي (الله حافظ الأنفس ورازقها وعالم بها وبما كسبت من خير وشر ومجازيها ، كمن لا يحفظ ولا يرزق ولا يعلم ولا يجزي)[2] ، والمقصود من هذه المقارنة إظهار البون الشاسع بين قدرة الله وعجز المربوبين .

قوله (..وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ..) (33) (فليس المراد أن يذكروا أساميها نحو اللات والعزى، وإنما المعنى إظهار تحقيق ما تدعونه إلها وأنه هل يوجد معاني تلك الأسماء فيها)[3]

فمقصود الكلام مناظرتهم في أسماء ما يعبدون من دون الله ، هل يتصفون – على التحقيق – بما يتسمون به ؟ وما دلالة ذلك على ألوهيتهم ؟ ، **كأنه يدعوهم للتعريف بآلهتكم وبما يتصفون من صفات وأسماء** ، وما يجوز لها وما لا يجوز في حقها ، بمعنى أن هؤلاء المجادلين قد كفروا بالرحمن ، فليذكروا أسماء آلهتهم –على سبيل الجدال– **لنناظرهم المسلمين فيها اسما اسما وصفة صفة** ، حتى يستبين أن عندهم علم ليس عند المسلمين بل وليس عند رسولهم خبر منه في الأرض بطريق الوحي .

فإن أضربوا عن ذكر ذلك فإنهم يتهربون من المجادلة ، وهنا يستبين أن ما يزعمونه من آلهة يعبدونها ما هو إلا ضرب من الظن ، (أي ظن بالباطل الذي لا حقيقة له في الواقع ولا دليل عليه) [4] ، وشبهات ألبسها عليهم إبليس ، دون تحقيق أو تثبت أو تمييز ، قال تعالى (**إِنْ هِيَ إِلا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنزلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ** إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى) [النجم: 23] ، ذلك أن (قَضِيَّةُ الأُلُوهِيَّةِ لَيْسَتْ مِنَ التَّفَاهَةِ وَالهَزَلِ بِحَيْثُ يَتَنَاوَلُهَا النَّاسُ بِظَاهِرٍ مِنَ القَوْلِ)[5].

قال طنطاوي (**هذا الاحتجاج من باب الاستدراج لبعثهم على الفكر أى** : أتقولون بأفواهكم من غير روية ، وأنتم ألباء ، فتفكروا فيه لتقفوا على بطلانه)[6]، أي (إنما عبدتم هذه الأصنام **بظن منكم** أنها تنفع وتضر، وسميتموها آلهة)[7] .

قوله (..بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ) (33) في لجملة فعلان لم يسم فاعلهما ، وهما (زُيِّنَ) ، (وَصُدُّوا) ، وقد سمي الفاعل في آية أخرى ، وهو الشيطان ، كما في قوله تعالى (وَزَيَّنَ لَهُمُ

---

[1]) تفسير الطبري ج16 ص 464
2) أيسر التفاسير للجزائري ج2 ص 252
3) أبو القاسم الحسين بن محمد : المفردات في غريب القرآن ج1 ص 244
[4]) أبو بكر الجزائرس ج2 ص 252
[5]) أسعد حومد : أيسر التفاسير ج1 ص 1741
[6]) الوسيط لسيد طنطاوي ج1 ص 2391
[7]) تفسير ابن كثير ج4 ص 463

الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ) ۙ (النمل 24) ، قال أبو زرعة (ترك تسمية الفاعل ليأتلف الكلام على نظام واحد)[1]

وقرأ الباقون (وصَدوا عن السبيل) بفتح الصاد أسندوا الفعل إلى الفاعل. وحجتهم قوله (الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله) وقال سبحانه (هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام) فلما رأوا الصد مسندا إليهم في هذه الآيات كذلك يكون مسندا إليهم في قوله (وصدوا عن السبيل) ، فأفاد المعنى أن كل منهم باشر وظيفة الشيطان في التزيين لأنفسهم وصد بعضهم بعضا عن السبيل .

والله هو الفاعل على الحقيقة لأنه هو الذي خلق أعمالهم ، فالأفعال تنسب إلى الله خلقا وتقديرا وإلى العباد كسبا وتحصيلا –كما تقدم –، فالله هو الذي جعل للشيطان القدرة على التزيين ، والقدرة على الصد ، ولذلك قال الواحدي (**زيَّن الشَّيطان لهم الكفر** ، وصدَّهم الله سبحانه عن سبيل الهدى)[2]، ونظير ذلك قوله (فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ (22) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ **فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ**) (محمد 23) ، وذلك عقوبة من الله لهم لأجل مكرهم بالذين آمنوا ، تحايلا منهم على شرع ربهم ، فخلى الله وبينهم وبين أنفسهم ، أو بينهم وبين شياطينهم التي أزتهم أزا ، واقترنت بهم في أعمالهم ، وذلك **جراء تقدم مكرهم وكيدهم بالمؤمنين** ، قال الرازي (هذا إضراب عن الاحتجاج عليهم ، أي ذما لهم وتسجيلا عليهم بالكفر ، لأن الذي **زين لهم مكرهم كيدهم للإسلام بشركهم أو تمويههم الأباطيل** ، فتكلفوا إيقاعها .. وظنوها شيئا لتماديهم في الضلال)[3].

ونظير ذلك كله قوله سبحانه (أَفَمَن **زُيِّنَ لَهُ سواء عَمَلِهِ** فَرَءَاهُ حَسَناً فَإِنَّ الله يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ فَلاَ تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حسرات إِنَّ الله عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ) [فاطر 8] ، أي تقدم سوء عملهم ثم زُين لهم هذا السوء – استدراجا – فتمادوا في الباطل ومكروا وصد بعضهم بعضا عن سبيل الله ، فتركهم الله وضلالهم فلم يهتدوا.

قال صاحب الظلال (فالمسألة إذن أن **هؤلاء كفروا وستروا أدلة الإيمان عنهم** وستروا نفوسهم عن دلائل الهدى ، فحقت عليهم سنة الله ، وصورت لهم نفوسهم أنهم على صواب ، وأن مكرهم وتدبيرهم ضد الدعوة حسن ، فصدهم هذا عن السبيل الواصل المستقيم ، ومن تقتضي سنة الله ضلاله لأنه سار في طريق الضلال فلن يهديه أحد ، لأن سنة الله لا تتوقف إذا حقت بأسبابها على العباد)[4] .. (فهذا التزيين وهذا الصد عن السبيل ، إنما كان من جراء الكفر وعدم الاستجابة لله ، أي من جراء تغيير الكفار ما بأنفسهم إلى ما يقتضي أن تجري مشيئة الله فيهم بالتزيين والصد والإضلال)[5] .

---

[1]) حجة القراءات ج1 ص 374
[2]) الوجيز للواحدي ج1 ص 386
[3]) روح المعاني ج13 ص 162
[4]) في ظلال القرآن ج4 ص 370
[5]) في ظلال القرآن ج4 ص 381

تخيل أنك تسير في طريق مستقيم وواضح المعالم يوصلك إلى بر الأمان ، وفي منتصف الطريق يقف الشيطان يخبث ودهاء ليصرف الناس عن مواصلة الطريق ، فهو ، لا يقطع الطريق عليهم جسدياً أو بإجبار المسافرين على تغيير اتجاههم ، فالشيطان لا يملك قوة "الإجبار" على المعصية ، ليس له سلطان ، ولكنه يمارس "التزيين" و"الخداع" ليجعل الإنسان يختار طريق الضلال بقدميه، فيتوهم أنه الأقرب لمصلحته الدنيوية ، وتتمثل أكثر حيله في التالي :-

أولا : تزيين المنعطفات : فيضع لافتات براقة عند مفترقات طرق فرعية مظلمة ، يكتب عليها عبارات جذابة مثل "طريق المتعة الأقصر" أو "طريق الراحة الأسهل" ، فيسمون الحرام بغير اسمه ليظنه أنه حلال ، فيسمي الزنا حب ، والتبرج حرية ، والنشوز المرأة على زوجها تحرر ، والربا فائدة ، والتولي عن الجهاد سياسة ، والقمار مضاربة ، وإهمال الدعوة إعلاء للحرية الشخصية ، ..الخ وهكذا ، قال تعالى (الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالفَحْشَاءِ)(الأعراف)

ثانيا : التشكيك في الهدف : بأن يوسوس للمسافر أن الطريق الأصلي طويل وشاق، وأن نهايته غير مضمونة، مما يزرع الشك في قلبه... وكثيرا ما يفعل ذلك ويجعل المرجفين يفعلون مثله في مواطن الجهاد ...كما في قوله (وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا) (الأحزاب12)

ثالثا : الخداع البصري :يستخدم أدوات تجعل السراب يبدو وكأنه ماء عذب، وتجعل الأشواك تبدو كورود، ويحصل ذلك عادة للجهلة الذين لا يتحصنون بالعلم والأذكار ، فيبدأ بالانحراف عن الجادة تدريجياً... وهو ما يحاول أن يفعله الدجال آخر الزمان فلا تنطلي حيله على المؤمنين .

قوله (..ومن يضلل الله فما له من هاد..) (33) قال الرازي وهو صريح في المقصود وتصريح بأن ذلك المزين وذلك **الصاد ليس إلا الله)** [1] ، قال القشيري (**فصاروا مصدودين** عن الحق ، مسدودة عليهم الطُّرُقُ ، فإنَّ مَنْ أَضَلَّه حُكْمُه – سبحانه – لا يهديه أحدٌ قطعاً)[2].

قوله (..لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ) (34) قال الواحدي عذاب الدنيا (بالقتل والأسر)[3] ، والمعنى أشمل من ذلك ، فهو يشمل العذاب النفسي وعدم الطمأنينة ، يقول مفتي الديار المصرية الشيخ طنطاوي أى (لهم عذاب شديد فى الحياة الدنيا ، ينزله الله – تعالى – بهم **تارة عن طريق القوارع والمصائب التى يرسلها عليهم ، وتارة عن طريق الهزائم التى يوقعها بهم المؤمنون)**[4]

قال الشعراوي أي (أن العذاب الذي يَلْقوْنَه في الحياة الدنيا هو **لصيانة حركة المجتمع من الفساد** ، ولابد أنْ يقعَ لهم عذابٌ في الحياة الدنيا؛ ولأن مَنْ يؤجِّل عذابه للآخرة؛ لابد أن يرى في نفسه آية العذاب قبل أن يَلْقى عذابه في الآخرة ، إذن : فعذاب الدنيا هو لحماية حركة الحياة؛ ولذلك نجد القوانين وهي تُسَنُّ لِتُطبق على المنحرف؛ ومَنْ يرتكب الجُرْم يخاف أن تقع عليه العين؛ وإن رآه أحد فهو يبلغ عنه ليلقى عقابه؛ وبذلك تستقيم حركة الحياة) [5] .

---

[1]) تفسير الرازي ج9 ص 186
[2]) تفسير القشيري ج4 ص 14
[3]) الوجيز للواحدي ج1 ص 386
[4]) الوسيط لسيد طنطاوي ج1 ص 2391
5) تفسير الشعراوي ج1 ص 4603

والإخبار بوقوع العذاب في الآخرة هو بيان لعدم هدايتهم ، **فلا يشق على النبي ﷺ مجادلتهم معه** ، قال الرازي (أخبر عنهم أنهم سيقعون في عقاب الآخرة وإخبار الله ممتنع التغير ، وإذا امتنع وقوع التغير في هذا الخبر ، امتنع صدور الإيمان منه)[1]، فالله تعالى جعل أهل الجدل بالباطل وقودا للنار .

قوله (مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ) (35) ضرب الله مثلا للجنة التي وعدها للمتقون حتى تتصورها الأذهان ، فينشطون للعمل من أجلها ، ويصبروا على البلاء .

وفي قوله (مَثَلُ الْجَنَّةِ..) قال الشعراوي (**لا توجد في اللغة ألفاظ تعبر عن نعيم الجنة**؛ لأن المعنى غير معروف لنا ، ولكن الله أراد أن يحببنا فيها فأعطانا صورة نفهمها عن النعيم ، فيقول عز وجل " **مَّثَلُ الجنة** " وهو يريدنا أن نعرف أن فيها نعيماً خالياً من كل المنغصات التي تكون في المثل)[2]، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (قَالَ اللَّهُ أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ **مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ** فَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ"**فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ**")[3].

وهنا أشارت الآية إلى دوام رزق المتقين في الجنة بقوله (أكلها دائم) ،كما أشارت إلى دوام الرفاهية والرخاء في العيش بقوله (وظلها) ، قال الرازي (اعلم أنه تعالى وصف الجنة بصفات ثلاث :-

أولها : تجري من تحتها الأنهار ....كناية عن جمال المنظر وروعة الموقع .

وثانيها : أن أكلها دائم . والمعنى : أن جنات الدنيا لا يدوم ورقها وثمرها ومنافعها . أما جنات الآخرة فثمارها دائمة غير منقطعة ....كناية عن عدم انقطاع الرزق بما يستريح معه البال

وثالثها : أن ظلها دائم أيضاً ، والمراد أنه ليس هناك حر ولا برد ولا شمس ولا قمر ولا ظلمة ونظيره قوله تعالى (لا يرون فيها شمساً ولا زمهريراً) [الإنسان : 13] .....كناية عن الرفاهية وعدم المغصات)[4]

قوله (..تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ) (35) (لما تعالى وصف الجنة بهذه الصفات الثلاثة بين أن ذلك عقبى الذين اتقوا يعني عاقبة أهل التقوى هي الجنة ، وعاقبة الكافرين النار)[5] فشتان بين العاقبتين .

---

[1]) تفسير الرازي ج9 ص 186 والتعقيب على قوله مني
[2]) تفسير الشعراوي ج1 ص 3458
[3]) رواه البخاري ج11 ص 22 رقم 3005 ورواه ابن ماجة ج12 ص 389 رقم 4319
[4]) تفسير الرازي ج9 ص 187
[5]) تفسير الرازي ج9 ص 187

المحور السادس

الحكم العربي

قال تعالى (وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ **يُنْكِرُ بَعْضَهُ** قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ (36) وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ **حُكْمًا عَرَبِيًّا** وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَمَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ (37) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ **وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً** وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ (38) يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ (39) وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ (40) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي **الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا** وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (41) وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ (42)

وفيه عدة مسائل :-

الأولى : أولوا العلم يفرحون بالكتاب ، ومن الأحزاب من ينكر بعضه .

الثانية : الإسلام جاء ليحكم العرب .

الثالثة : المسلمون العرب يُتبعون ولا يتبعون .

الرابعة : الرسول يعيش حياته البشرية ليكون قدوة حسنة .

الخامسة : الله يسوق الآيات بأجل معلوم وليس بحسب اقتراح المجادلين .

السادسة : الفتح الإسلامي هو آية الله يسوقها للمجادلين.

المسألة الأولى : أولوا العلم يفرحون بالكتاب ، ومن الأحزاب من ينكر بعضه

قوله (وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ...) (36) انتقلت الآيات لبيان حال بعض أهل الكتاب من القرآن الكريم بأنهم تلقوه بفرح وحسن استهلال ، قال ابن عاشور (وذلك عقب الفراغ من ذكر أحوال المشركين)[1] ، (وفي ذكر (يفرحون) بلاغة أن لم يقل (يؤمنون) ، لأن أهل الكتاب كانوا يستظهرون على بعضهم البعض وعلى العرب بخاتم الأنبياء ، فسُروا بخبر بعثه لكنهم حزنوا أنه كان من العرب ولم يكن منهم ، وزاد حزنهم لما علموا أن دعوته عامة وليست خاصة بالعرب وحدهم)[2]، لكن المؤمنين منهم جاء حالهم بخلاف حال هؤلاء ، إذ فرحوا بالنبي والكتاب ولم يأبهوا أنهم من العرب وليس منهم .

والمؤمنون من أهل الكتاب الذين فرحوا بنزول القرآن فآمنوا به ، فآتاهم الله أجرهم مرتين ، كما في قوله (الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ (القصص 52) وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ

[1]) التحرير والتنوير ج12 ص 196
[2]) ملخص ما ذكره ابن عاشور في التحرير والتنوير ج12 ص 196

مُسْلِمِينَ (القصص 53) **أُوْلَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ** بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ) (القصص 54) .

قال ابن القيم (**الفرح بالله** وبرسوله وبالإيمان وبالسنة وبالعلم وبالقرآن **من أعلى مقامات العارفين** ، فالفرح بالعلم والإيمان والسنة دليل على تعظيمه عند صاحبه ومحبته له وإيثاره له على غيره، فإن فرح العبد بالشيء عند حصوله له على قدر محبته له ورغبته فيه ، فمن ليس له رغبة في الشيء لا يفرحه حصوله له ولا يحزنه فواته ، فالفرح تابع للمحبة والرغبة)[1].

قوله (..وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ..) (36) أي لم يكونوا جميعا على قلب رجل واحد ، بل كان منهم مؤمنون ، وكثير منهم منكرون ، قال تعالى (**فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ**) [مريم 37] ، وفي التعبير عنهم بالأحزاب إيماء إلى أن هؤلاء هم المتحزبون المتصلبون لقومهم ولما كانوا عليه ، هكذا كانت حالة اضطراب أهل الكتاب عندما دمغتهم بعثة النبي ﷺ وأخذ أمر الإسلام يفشو) [2] .

فمن لم يؤمن منهم ، فإنه لم يؤمن عن استكبار ، فهو ينكر ما يعرف أنه الحق ، فعن ابن زيد – رضي الله عنه – في قوله (والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل إليك) قال : هذا من آمن برسول الله ﷺ من أهل الكتاب ، يفرحون بذلك . وقرأ (ومنهم من يؤمن به ومنهم من لا يؤمن به) [يونس : 40] (ومن الأحزاب من ينكر بعضه) قال : الأحزاب ، الأمم اليهود والنصارى والمجوس ، منهم من آمن به ، ومنهم من أنكره) [3]

وهؤلاء الذين تحزبوا على رسول الله ﷺ أهل ملل مختلفة ، (منهم اليهود والنصارى تحزبوا ضده)[4]، فتحزب اليهود والنصارى والمشركون معا ضد الإسلام ما يؤكد أن **الكفر كله ملة واحدة** ، ولذلك سماهم القرآن (أحزابا) رغم أنهم ديانات شتى ، وعقائد مختلفة ، لكنهم إزاء الإسلام يتحدون ضده ويتحزبون عليه ، (يتحزبون حتى لا يستبين إنكارهم فرادى لخشيتهم منه)[5] .

---

1) التفسير القيم لابن القيم ج1 ص 475 مدارج السالكين حـ 3 صـ 97 - صـ 99

[2]) التحرير والتنوير ج12 ص 199

[3]) الدر المنثور ج6 ص 20

[4]) في هذا المعنى اللباب في علوم الكتاب ج9 ص 439 ، الوجيز للواحدي ج1 ص 387

5) اقرأ ما جاء في موسوعة الدفاع عن رسول الله ﷺ لمؤلفها علي بن نايف الشحود (وهذا كعب بن أسد - سيد بني قريظة - ينصح قومه ، حين حاصرهم النبي - صلى الله عليه وسلم - بعد نقضهم للعهد الذي بينهم وبينه ، وتحزبهم مع الأحزاب ضد النبي - صلى الله عليه وسلم وأصحابه - فلما أيقنوا بأن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - غير منصرف عنهم حتى يناجزهم ، قال كعب بن أسد لهم : يا معشر يهود! قد نزل بكم من الأمر ما ترون ، وإني عارض عليكم خلالا ثلاثا ، فخذوا أيها شئتم .قالوا : وما هي ؟ فكان مما عرضه عليهم ، قوله : نتابع هذا الرجل ونصدقه ، فوالله ، لقد تبين لكم أنه لنبي مرسل ،وإنه للذي تجدونه في كتابكم ، فتأمنون على دمائكم وأموالكم وأبنائكم ونسائكم . فرفضوا وأبوا [ابن إسحاق ، انظر السيرة النبوية لابن هشام 195/4].

وها هم نصارى نجران يصرحون بنبوته لبعضهم البعض ، فقد بعث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بكتابه إليهم يدعوهم فيه إلى الإسلام ، فلما قرأ الأسقف الكتاب فظع به وذعر ذعراً شديدا ، ثم دعا أهل الرأي في نجران فأطلعهم على الكتاب ،وتشاوروا فيه ، فاجتمع رأيهم على أن يبعثوا وفداً إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - فاختاروا ستين راكبا ، منهم أربعة عشر من أشرافهم ، يتزعمهم ثلاثة منهم ، وهم : العاقب ، وكان أمين القوم ، وذو رأيهم وصاحب مشورتهم ، والذي لا يصدرون إلا عن رأيه وأمره ، واسمه عبد المسيح ، والسيد ، وكان عالمهم ، وصاحب رحلهم ومجتمعهم ، وأبو حارثة بن علقمة أخو بكر بن وائل ، وكان أسقفهم وحبرهم ، وإمامهم وصاحب مراميهم .

لم يكن له أب يعلم ، وقد تكلم في المهد بشيء لم يصنعه أحد من بني آدم قبله .

ويحتجون على قولهم بأنه ثالث ثلاثة ، يقولون :

قال الله تعالى فعلنا وأمرنا وخلقنا وقضينا ، فيقولون :لو كان واحدا ، ما قال إلا فعلت وأمرت وقضيت وخلقت ، ولكنه هو وعيسى ومريم .تعالى الله وتقدس وتنزه عما يقول الظالمون والجاهلون علوا كبيرا ، ويقال لهم إن: معنى هذه الكلمات ، ومثلها قوله تعالى "نحن" من المتشابه ، فالواحد المعظم لنفسه يقول: نحن ، والجماعة يقولون : نحن ، وهذا لا يلتبس بكتاب الله؛ لأننا نرده إلى المحكم ، وهو قوله: {وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ }[سورة العنكبوت الآية : 46]، وقوله تعالى :{ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ }[الأنعام:19] ، وقوله تعالى:{لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ } [المائدة:73]-

فلما كلمه الحبران العاقب والسيد ، دعاهما النبي - صلى الله عليه وسلم - للإسلام ، فأبيا ، وجادلوه في عيسى عليه السلام ، وقالا :فمن أبوه يا محمد ؟ فأنزل الله عليه الوحي: {إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ } [سورةآل عمران الآية: 59].

(فمن **اليهود** الذين تحزبوا على رسول الله ﷺ بالعداوة والشحناء؛ كعب بن الأشرف وأصحابه ، ومن **النصارى** العاقب والسيد أثقفي نجران ، وأشياعهما)[1] ، قال ابن عاشور (ولعل هؤلاء هم خبثاؤهم ودهاتهم الذين توسموا أن القرآن يبطل شرائعهم فأنكروا بعضه ، وهو ما فيه من الإيماء إلى ذلك من إبطال أصول عقائدهم مثل عبودية عيسى – عليه السلام – بالنسبة للنصارى ، ونبوءته بالنسبة لليهود)[2] .

والقرآن أثبت أنهم ينكرون بعضه ، ما يعني بمفهوم المخالفة أنهم يؤمنون ببعض ، لكن ذلك ليس كاف في دين الله تعالى ، لأن هناك **فارق بين الاعتقاد والتطبيق** ، **فالعقيدة لا تتجزأ أم التطبيق فرويدا رويدا** ، وهؤلاء الأحزاب يريدون أن يميعوا عقيدة الإسلام كما يميعون عقائدهم فيتحزبون معا ويجتمعون على مبادئ مشتركة يظنون أنهم بها يقيمون مصالحهم ، ويريدون أن يشترك معهم المسلمون في ذلك ، فيتفق الجميع على نقاط الاتفاق ، ويتحلل الجميع من نقاط الخلاف ، ولكن الإسلام يرفض هذه المساواة ، فلا بد من الإيمان به كله جملة وتفصيلا ، ولا يجوز الإيمان ببعض الكتاب والكفر ببعضه ، وكأنهم يساومون المسلمين على أن يأخذوا من هذا الدين ما يوافق أهواءهم مثل المعاملة بالحسنى ، وهو **ما يسمونه بمبادئ الاتيكيت** ، ويتركون منه ما يتعارض معها سواء في العقيدة أو المعاملات ، كمبادئ الإسلام في تحقيق ميزان تجاري قائم على القسط بين الناس وقواعد اقتصادية عادلة أو سياسة شرعية ترعى مصالح الراعي والرعية ....الخ ، **فهم بأهوائهم تلك** يفسدون الدين والحياة معا ، **فلا دين راعوا ولا دنيا أقاموا** .

قوله (..قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ) (36) يلقن المولى سبحانه نبيه كلمات يقولها عندما يتحزب عليه الكافرون ، قل (أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به) ، فلا سبيل للموارية أو التنازل عن شيء من هذا الدين ، قال تعالى (قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ (64) وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (65) بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنْ الشَّاكِرِينَ) [الزمر:64-66].

قال ابن عجيبة (الآية **جواب للمنكرين** ، أي : قل لهم : إنما أمرت فيما أنزل إليَّ أن أعبد الله وأوحده ، وهو العمدة في الأديان كلها ، **فلا سبيل لكم إلى إنكاره** ، وأما إنكاركم ما يخالف شرائعكم فليس ببدع مخالفة الشرائع والكتب الإلهية في جزئيات الأحكام؛ لأنها تابعة للمصالح والعوائد وتتجدد بتجددها)[3] .

قوله (..إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ) (36) أوضح لهم حقيقة العقيدة الإسلامية ، فهو يعبد الله الذي يديه لن بالصلة والدعاء ، ويعلم أن أعماله كلها تدور حول معنى العبادة لله ، ما يستوجب قصر الطلب من الله سبحانه ، التوجه بالدعاء إليه وحده ، لأن اليقين بالرجوع إليه ، فهو وحده عنده الجزاء والمثوبة .

---

[1]) البحر المحيط ج7ص134 تفسير أبي السعود ج4 ص8 ، الكشاف ج3 ص 256
[2]) التحرير والتنوير ج12 ص 199
3) البحر المديد ج3 ص 176

قال ابن القيم (طريقة القرآن في مثل هذا أن **يقرن النفي بالإثبات** فينفي عبادة ما سوى الله ويثبت عبادته وهذا هو حقيقة التوحيد والنفي المحض ليس بتوحيد ، وكذلك الإثبات بدون النفي فلا يكون التوحيد إلا متضمنا للنفي والإثبات وهذا حقيقة لا إله إلا الله)[1]

المسألة الثانية : الإسلام جاء ليحكم العرب

قوله (وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا..) (37) قال السيوطي أَيْ "الْقُرْآن" "حُكْمًا عَرَبِيًّا" (**بِلُغَةِ الْعَرَب تَحْكُم بِهِ بَيْن النَّاس**) [2]، قال مفتى الديار المصرية أى : (**حاكما بين الناس**) [3]، قال الشنقيطي (هذه الآيات القرآنية تدل على شرف اللغة العربية وعظمها، دلالة لا ينكرها إلا مكابر)[4].

قال الرازي والخازن (وإنما سمي القرآن حكماً – **لأنه سبب للحكم** – فيه جميع التكاليف والأحكام والحلال والحرام والنقض والإبرام)، وقيل (إن الله لما حكم على جميع الخلق بقبول القرآن والعمل بمقتضاه سماه حكماً) [5]، كما في قوله تعالى (**الكتاب والحكم والنبوة**) [الأنعام : 89]

ومناسبة ذكر ذلك ما قاله ابن عاشور (لما ذكر حال تلقي أهل الكتابين للقرآن عند نزوله **عرج على حال العرب** في ذلك بطريقة التعريض بسوء تلقي مشركيه له **مع أنهم أولى الناس بحسن تلقيه** ، إذ نزل **بلسانهم** مشتملا على ما فيه **صلاحهم** وتنوير عقولهم، وقد جعل أهم هذا الغرض التنويه بعلو شأن القرآن لفظا ومعنى ، وأدمج في ذلك بالتعريض بالمشركين من العرب)[6] .

ولا يخفى ما فيه من الإشارة إلى **تقليد العرب مهمة التحكيم بشرع الله** ، تعليل ذلك بأنهم تميزوا عن غيرهم بصفة الكرم والشجاعة ، فكانوا خير أمة أخرجت للناس ، ولأنهم أفصح الناس لسانا وبيانا ، فكانوا خير دعاة إلى الله من بين الناس .

قال الأستاذ محمد رشيد رضا (اقتضت حكمته – سبحانه – أن يكون نشره في مشارق الأرض ومغاربها بدعوة قريش وزعامتهم ، **وقوة العرب وحماية هذه الدعوة** ، وكل من دخل في الإسلام من **الأعجام** وكان له عمل صالح فيه كان **تابعا لهم متلقيا عنهم** ، على مساواة الشرع في أحكامه بينهم ، **ونبوغ كثير من مواليهم الذين استعربوا بالتبع لهم** ، وكانت قريش في جملة بطونها أكمل العرب خلقا وأخلاقا وفصاحة وذكاء وفهما وقوة عارضة ، كما كانت أصرح نسبا في سلالة إسماعيل وأشرف تاريخا في العرب بفضائلها وفواضلها وخدمتها لبيت الله تعالى ، فكان مجموع هذه المزايا

---

[1]) بدائع الفوائد ج1 ص 141
[2]) تفسير الجلالين ج4 ص 251
[3]) الوسيط لسيد طنطاوي ج1 ص 2394
[4]) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ج6 ص 361
[5]) تفسير الخازن ج4 ص 95 تفسير الرازي ج1 ص 281
[6]) التحرير والتنوير ج12 ص 199

التي كملت بالإسلام مؤهلا لها لاجتماع كلمة العرب عليها ، ثم كلمة من يدخل في الإسلام من شعوب العجم بالأولى)[1].

وفي ذلك إظهار لآية أخرى على صدق النبي ﷺ لاسيما بعد وفاته ﷺ **وسيادة العرب المسلمين للجزيرة العربية كلها بل وأفريقيا وأسيا وأطراف أوروبا ثم انتشار الإسلام في ربوع بلدان العالم** ، وكل ذلك تحت قيادة العرب الذين كان لا يأبه بهم الفرس ولا الروم ،ولا يعتبران العرب تهديدا حقيقيا لممالكهم

وكما أن **المشركين** لا يؤمنون بالله ورسوله ولا باليوم الآخر فكذلك **لا يؤمنون بوعد الله لعباده المؤمنين** ، وبهذه المناسبة ، وإذ ذكرت السورة استهزاء المشركين ما وعد الله به المسلمين من النصر ، وهو قوله (وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ) (الرعد32) ، يجدر بنا – في هذا المقام – أن نذكر – كذلك – حال المنافقين الذين كانوا يسخرون من النبي ﷺ حين أنبأهم بأن ملكه سوف يطول الفرس والروم والأحزاب من كفار قريش وشبه الجزيرة العربية يحيطون بهم من كل جانب ، (وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ **مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً**) (الأحزاب 13) ، ذكر ابن كثير أن هذه الآية نزلت في معتب بن قشير، وهو الذى قال يوم الأحزاب: كان محمد يعدنا أنا نأكل كنوز كسرى وقيصر ، وأحدنا لا يأمن أن يذهب إلى الغائط)[2].

قال الواحدي فقوله (وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا..) (يعني : القرآن؛ لأنَّه به يحكم ويفصل بين الحقِّ والباطل ، وهو بلغة العرب)[3] ، قال ابن عاشور (حصل لهذا الكتاب كمالان: **كمال من جهة معانيه ومقاصده** وهو كونه حكما، **وكمال من جهة ألفاظه** وهو المكنى عنه بكونه عربيا)[4] ، وهو ما يستفاد منه أن معجزة الإسلام سوف تتحقق بالتمكين لهذا الكتاب ، فيكون حاكما بين الناس ، ويظهر الإسلام على الدين كله ، فيعود كما بدأ ، فيسود كما ساد زمان عمر بن الخطاب وعثمان الأرض ، ولكن لكل أجل كتاب .

فيستدل بهذه الآية **ضمنيا** علي أن **الإسلام دين ودولة**، حيث يشير وصفه بـ"حكم عربي" إلى أن القرآن الكريم الذي هو مصدر الحكم في الإسلام جاء بلغة العرب ليشتمل على نظام الحكم والتنظيمات الشارعة للناس لحياتهم سواء في الإطار الفردي التعبدي أو الاجتماعي والمعاملات بين الناس أو السياسي بشأن تنظيم الدولة ذاتها ، وهذا يعني أن الإسلام يمتد ليشمل جانب الدولة والحكم وليس مجرد عبادة وشعائر دينية ، فتعبير "حكم عربي" لا يشير إلى اللغة فقط ، بل يتضمن الإشارة إلى أن الإسلام يشتمل على تشريع يضع الأسس الحاكمة للدولة بأقطارها .

---

[1]) محمد رشيد رضا : الخلافة ج1 ص 30
[2]) السيرة النبوية لابن كثير ج2 ص 346
[3]) الوجيز للواحدي ج1 ص 387
[4]) التحرير والتنوير ج12 ص 199

ويعضد هذا المعنى ما ثبت من أن نقض الولاية من علامات القيامة لقول النبي ﷺ (قَالَ فَإِذَا ضُيِّعَتْ الْأَمَانَةُ فَانْتَظِرْ السَّاعَةَ قَالَ كَيْفَ إِضَاعَتُهَا قَالَ إِذَا وُسِّدَ الْأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ فَانْتَظِرْ السَّاعَةَ)[1] ، ويعضد هذا المعنى –كذلك – ما روي من أنه (**من استعمل رجلا من عصابة وفي تلك العصابة من هو أرضى لله منه فقد خان الله و خان رسوله وخان المؤمنين**)[2] ، قال ابن تيمية تعليقا على هذا الحديث (**فيجب على ولي الأمر أن يولي على كل عمل من أعمال المسلمين أصلح من يجده لذلك العمل** ، .. وهذا واجب عليه فيجب عليه البحث عن المستحقين للولايات من نوابه على الأمصار من الأمراء الذين هم نواب ذي السلطان والقضاة ومن أمراء الأجناد ومقدمي العساكر والصغار والكبار وولاة الأموال من الوزراء والكتاب والشادين والسعاة على الخراج والصدقات وغير ذلك من الأموال التي للمسلمين وعلى كل واحد من هؤلاء أن يستنيب ويستعمل أصلح من يجده وينتهي ذلك إلى أئمة الصلاة والمؤذنين والمقرئين والمعلمين وأمير الحاج والبرد والعيون الذين هم القصاد وخزائن الأموال وحراس الحصون والحدادين الذين هم البوابون على الحصون والمدائن ونقباء العساكر الكبار والصغار وعرفاء القبائل والأسواق ورؤساء القرى الذين هم الدهاقون ، فيجب على كل من ولي شيئا من أمر المسلمين من هؤلاء وغيرهم أن يستعمل فيما تحت يده في كل موضع أصلح من يقدر عليه)[3]

وقال (ولا يقدم الرجل لكونه طلب الولاية أو يسبق في الطلب بل ذلك سبب المنع)[4] ، فعَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ دَخَلْتُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ أَنَا وَرَجُلَانِ مِنْ قَوْمِي فَقَالَ أَحَدُ الرَّجُلَيْنِ أَمِّرْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ وَقَالَ الْآخَرُ مِثْلَهُ فَقَالَ (**إِنَّا لَا نُوَلِّي هَذَا مَنْ سَأَلَهُ وَلَا مَنْ حَرَصَ عَلَيْهِ**)[5] .

المسألة الثالثة : المسلمون يُتبعون ولا يتبعون

قوله (..وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَمَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ) (37) هنا أُمر النبي ﷺ بمخالفتهم حتى يقطع أملهم في متابعته لهم ، وكان قبل ذلك يحاول موافقتهم في كل شيء ، فكان يتزلف لهم ويتودد لهم ليؤمنوا به ، بما يعني أن **هذا الوقت هو إيذان للنبي ﷺ بأن يغير سياسته في التعامل مع اليهود والنصارى** ، وقد كان قبل ذلك يوادهم ويتبعهم فيما لم يؤمر بخلافه ، طمعا في أن يتبعه كثير منهم ، فقطع الله طمعه بتحذيره من اتباعهم حتى في العادات ليسلم من بدعتهم ، وجنوح أهواءهم.

فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ **كَانَ يَسْدِلُ شَعْرَهُ** وَكَانَ الْمُشْرِكُونَ يَفْرُقُونَ رُءُوسَهُمْ وَكَانَ **أَهْلُ الْكِتَابِ يَسْدِلُونَ رُءُوسَهُمْ** وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ **يُحِبُّ مُوَافَقَةَ أَهْلِ الْكِتَابِ فِيمَا لَمْ يُؤْمَرْ فِيهِ بِشَيْءٍ** ثُمَّ فَرَقَ النَّبِيُّ ﷺ رَأْسَهُ)[6]، بذلك احترز النبي ﷺ من متابعتهم وأمر بمخالفتهم حتى في العادات ، لأنهم بدلوا شرعهم ، وحين يتبعهم فإنه

---

[1]) رواه البخاري ج1 ص 103 رقم 57
[2]) رواه الحاكم في المستدرك على الصحيحين ج4 ص 104 رقم 7023 وضعفه الألباني وغيره لوجود راوي ضعيف وهو (حنش) حسين بن قيس الرحبي
[3]) السياسة الشرعية ج1 ص 17
[4]) السياسة الشرعية ج1 ص 17
[5]) رواه البخاري ج22 ص 60 رقم 6616
[6]) رواه البخاري ج 12 ص 334 رقم 3650

لن يتبع شرع ما قبلنا ، وإنما يتبع أهواءهم ، لتحريفهم كتبهم ، وقد نزل القرآن الكريم فيه العلم من الله بما ثبت من الشرائع وأمور التوحيد ناسخا لما قبله من كتاب ومهيمنا عليه .

وقد حذر النبي ﷺ أمته من أن يتبعوهم –أي أهل الكتاب– في أي شيء ، لأنهم تميزوا بالمكر بالمسلمين ،وعرفوا بأنهم يلبسون الحق بالباطل ، حتى لا ينجرف المسلمون حين متابعتهم لما يوافق أهواءهم ، فينحرفوا عن عقيدتهم وتفسد عبادتهم وأخلاقهم ،وهم يظنون أنهم يحسنون صنعا .

ونحن قد تراءى لنا تغير شديد في أخلاق المسلمين وعاداتهم عما ذي قبل بسبب هذه المتابعة ، وقد اعوج لسان كثير من العرب ، بل وتمايل بعضهم مثل النساء ، بسبب مخالطتهم لغير العرب من غير المسلمين ، وتغير لباس المرأة المسلمة لذات السبب ، بعدما استطال الزمان وانتشرت صورة الخمار والجلباب ،.....وهكذا ، وقد حذرنا النبي ﷺ من هذه المتابعة ، فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ **(لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ شِبْرًا بِشِبْرٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ حَتَّى لَوْ سَلَكُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَسَلَكْتُمُوهُ قُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى قَالَ فَمَنْ)**[1].

يرى ابن خلدون في مقدمته أن أخلاق الأمم تتبع أحوالها، بمعنى أنها تتأثر بالظروف الاجتماعية والأحوال الاقتصادية السائدة فيها ، وذكر أن أخلاق العرب (خاصة في اللسان والعمران) قد تأثرت سلباً وإيجاباً بمخالطة الأعاجم[2]، واستثني ابن خلدون لغة "قريش" لكونهم الأبعد عن بلاد العجم ، وذلك لما اتسعت رقعة الدولة الإسلامية وخرجوا من البادية ليختلطوا بالأمم الأخرى في الأمصار والحواضر .

أما العادات ، فقد اكتسب كثير من العرب عادات الترف لما تركوا حياة البداوة والخشونة ، واعتادوا الدعة والترف ، مما أدى إلى ضعف تدريجي في صفاتهم جيلا بعد جيل ، قال ابن خلدون (أثر الخصب في أحوال الناس ،حتى ظهر ذلك في حال الدين والعبادة ، فنجد المتقشفين من أهل البادية أو الحاضرة ممن يأخذ نفسه بالجوع والتجافي عن الملاذ أحسن ديناً وإقبالاً على العبادة من أهل الترف والخصب ، بل نجد أهل الدين قليلين في المدن والأمصار لما يعمها من القساوة والغفلة المتصلة بالإكثار من الملذات ، ويختص وجود العباد والزهاد لذلك بالمتقشفين في غذائهم من أهل البوادي)[3].

وقد أدى ذلك إلى أن استولى الأعاجم (مثل الفرس، الترك، والبربر) في أوقات لاحقة على مقاليد الحكم والسلطة ، قال ابن خلدون (لما ضعف أمر قريش وتلاشت عصبيتهم بما نالهم من الترف والنعيم، وبما أنفقتهم الدولة في سائر أقطار الأرض عجزوا بذلك عن حمل الخلافة، وتغلبت عليهم الأعاجم وصار الحل والعقد لهم ، وعلى ذلك أكد ابن خلدون على قاعدة أن (أحوال الأمم تتبدل بتبدل الأعصار ومرور الزمان)[4]

---

[1]) رواه البخاري ج11 ص 272 رقم 3197
[2]) مقدمة ابن خلدون ج1 ص 353
[3]) مقدمة ابن خلدون ج1 ص 36
[4]) مقدمة ابن خلدون ج1 ص 99

وكذلك طبائع العرب لم تكن بمعزل عن هذا التغيير الحتمي الذي يخضع لعوامل الاختلاط بالغير دون ضابط يحمي الهوية من التغيير ، قال ابن خلدون (طبيعة الملك تقتضي الترف ، فتكثر عوائدهم وتزيد نفقاتهم على أعطياتهم، ولا يفي دخلهم بخرجهم، فالفقير منهم يهلك والمترف يستغرق عطاءه بترفه، ثم يزداد ذلك في أجيالهم المتأخرة إلى أن يقصر العطاء كله عن الترف وعوائده، وتمسهم الحاجة وتطالبهم ملوكهم بحصر نفقاتهم في الغزو والحروب، فلا يجدون وليجة عنها، فيوقعون بهم العقوبات، وينتزعون ما في أيدي الكثير منهم يستأثرون به عليهم، أو يؤثرون به أبناءهم وصنائع دولتهم، فيضعفونهم لذلك عن إقامة أحوالهم، **ويضعف صاحب الدولة بضعفهم**.

وأيضاً إذا كثر الترف في الدولة وصار عطاؤهم مقصراً عن حاجاتهم ونفقاتهم، احتاج صاحب الدولة الذي هو السلطان إلى الزيادة في أعطياتهم حتى يسد خللهم ويزيح عللهم ، والجباية مقدارها معلوم، ولا تزيد ولا تنقص وإن زادت بما يستحدث من المكوس فيصير مقدارها بعد الزيادة محدوداً ، فإذا وزعت الجباية على الأعطيات وقد حدثت فيها الزيادة لكل واحد بما حدث من ترفهم وكثرة نفقاتهم، نقص عدد الحامية حينئذ عما كان قبل زيادة الأعطيات. ثم يعظم الترف وتكثر مقادير الأعطيات لذلك، فينقص عدد الحامية، وثالثاً ورابعاً إلى أن يعود العسكر إلى أقل الأعداد، فتضعف الحماية لذلك، وتسقط قوة الدولة ويتجاسر عليها من يجاورها من الدول أو من هو تحت يديها من القبائل والعصائب، ويأذن الله فيها بالفناء الذي كتبه على خليقته ، وأيضاً فالترف مفسد للخلق بما يحصل في النفس من ألوان الشر والسفسفة وعوائدها)[1]

المسألة الرابعة : الرسول يعيش حياته البشرية ليكون قدوة حسنة

قوله (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً..) (38) هذا هو ما يتميز به التصور الإسلامي للرسول بأنه بشر عادي مثله مثل سائر البشر يعيش حياته البشرية بصورة طبيعية ، فليس معنى أنه رسول مبلغ لكلام الله أنه خرج عن ماهيته البشرية ، فلا يجوز المبالغة في تقديره كما بالغ من ضلوا وألهوا المسيح ابن مريم ، قال تعالى (**وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ**) [الفرقان20] ، وقال رسول الله ﷺ (**أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي**)[2].

وقد أثارت بشرية الرسول حفيظة المستكبرين ، فاستغربوا أن يكون الرسول بشرا مثلهم وصدهم ذلك عن الإيمان بالله ، قال تعالى (**وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَراً رَسُولاً**) [الإسراء 94] ، ذلك أنهم لا يرتضون لأحد من البشر أن يتميز عليهم ، ولكن ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، قال تعالى (**فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ**) (المؤمنون 24) .

---

[1]) مقدمة ابن خلدون ج1 ص 84

[2]) رواه البخاري ج15 ص 493 رقم 4675

فبشرية الرسول ﷺ أقامت حجة الله على البشر ، لأن الرسول يقوم بذات التكاليف الشرعية التي أُمِرنا بها ، وفي ذات الوقت يحتاج –مثلهم –إلى ما يحتاجون من مأكل ومشرب وملبس وزوجة وذريته ، وتعتريه العوارض الإنسانية من جوع ومرض وبرد وحر ...الخ ، فإذا فعل الرسول ذلك دل ذلك على أن الاستطاعة في مناط التكليف ، وأن الله لا يكلف عباده إلا بما يقدرون على فعله ، قال تعالى (**قُلْ إِنَّمَآ أَنَاْ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يوحى إِلَيَّ أَنَّمَآ إلهكم إله وَاحِدٌ** . . .) [الكهف : 110] ، أي أن بشرية الرسول جعلته قادر على أن يجمع بين واجبه الدعوى بالبلاغ عن الله ، وبين حياته البشرية التي من شأنها التزاوج والتناسل كسائر الناس ، وهو حين يفعل ذلك يكون قدوة لغيره ، ونموذجا لتطبيق شرع الله تعالى ، فيقتدي الناس بسيرته .

كما أن الخروج عن منهج الرسول الذي دأب عليه في حياته العملية هو خروج عن سنته ، وليس ذلك من الشرع أيا كانت الأسباب ، فعَنْ سَعْدِ بْنِ هِشَامٍ قَالَ أَتَيْتُ عَائِشَةَ فَقُلْتُ يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَتَبَتَّلَ فَقَالَتْ لَا تَفْعَلْ أَلَمْ تَقْرَأْ "لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ " قَدْ **تَزَوَّجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَوُلِدَ لَهُ**)[1]، ولذلك يقول النبي ﷺ (**تَزَوَّجُوا الْوَدُودَ الْوَلُودَ فَإِنِّي مُكَاثِرٌ بِكُمْ الْأُمَمَ**)[2] ، والمعنى الإجمالي (ما كان « محمد » ﷺ ، ملكا مرسلا بل بشرا مرسلا ، يتزوّج كما يتزوّج البشر ، ليكون ببشريته نموذجا يقتدى به ، كما قال تعال (**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ** لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآَخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا) (الأحزاب 21) ، قال الصابوني (وليس هو إلهاً ، ولا ابن إله – كما يعتقد النصارى في نبيّهم – إنما هو بشر مثلهم ، فضّله الله عليهم بالوحي والرسالة)[3] .

المسألة الخامسة : الله يسوق الآيات بأجل معلوم وليس بحسب اقتراح المجادلين

قوله (..وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآَيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ) (38) المقصود بالآية هنا ما اقترحه الكافرون على رسولهم جدلا ، بأن يأتيهم بآية معجزة مفصلة وفق أهوائهم ، مثل المائدة التي اقترحها الحواريون أن تنزل عليهم من السماء ، وقد هددهم الله إن لم يؤمنوا بها (قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ) (المائدة 115) ، وهؤلاء أهل جدال وخصومة ، وليسوا أهل البحث عن الحقيقة ، ولذلك فإن الله إذا استجاب لهم وأتى لهم بآية مقترحة فمن المؤكد أنهم لن يؤمنوا ، وعندئذ يحق عليهم عذاب الله ، وهو ما أكده القرآن بقوله ، (وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآَيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآَتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآَيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا) (الإسراء 59) ، إذن إذا حصلت الآية المقترحة فإنهم أول من يكذبون بها ، كما في قوله (وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ (14) لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ) (الحجر 15) ، قال ابن عاشور (هذا عود إلى الرد على المشركين في إنكارهم آية القرآن **وتصميمهم على المطالبة بآية من مقترحاتهم**

---

[1]) رواه أحمد ج50 رقم 322 رقم 23666
[2]) رواه أبو داود ج5 ص 431 رقم 1754 وصححه الألباني : صحيح أبي داود ج6 ص 291
[3]) الصابوني : تفسير آيات الأحكام ج1 ص 452

تماثل ما يؤثر من آيات موسى وآيات عيسى عليهما السلام ببيان أن **الرسول لا يأتي بآيات إلا بإذن الله، وأن ذلك لا يكون على مقترحات الأقوام)**[1].

وليس معنى بذلك أن الله لم ينزل آية ، بل آيات الله الكونية شاهدة كالبرق والرعد والصواعق ...الخ ، وآياته المسطورة في الكتاب كافية لأولي الألباب

قوله (..لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ) (38) أي أن نسخ الآيات أو الشرائع أو الإتيان بآية مادية معجزة كل ذلك في علم الله تعالى ، له أجل وبحكمته سبحانه ، وليس باقتراح أهل الجدل ، وإنما يحصل ذلك حين يحين أجله الذي قدره الله تعالى ، قال ابن جزي أي (لكل أجل كتاب كتبه الله في اللوح المحفوظ)[2].

والحق أن **الآية** هي ما كانت كذلك **باعتبار أولي الألباب ، وليس باعتبار القاسية قلوبهم** ، والعلة من ذلك أن لكل نبي آية ومعجزة تتناسب مع أفهام قومه ، ولذلك قال الله تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) (إبراهيم4) ، ولما كان الناس ينظرون إلى العرب على أنهم أمة أمية لا تعرف القرآة والكتابة ، وأنهم رعاة الشاة ، ورزقهم وراء الغنم ، فقد يستعجب أن يجعلهم الله أهلا لحمل أمانة هذه الدعوة المباركة ، أن يستطيل ملكهم ليحكم سائر البلاد ، فتلك آية تحتاج لمزيد من التدبر والتفكر فيها .

ولذلك ربط أبو سراج بين وعد الله المؤمنين بالنصر ، وبين الإتيان بآية معجزة تدل على صدق النبوة والكتاب ، فقال (**وظهور النصر والفتح للأولياء ، فقضى الله بحصولها في أوقات معينة ، ولكل حادث وقت معين)**[3] يعني أن من أظهر الآيات على هذا الدين هو حصول التمكين لعباده المؤمنين ، ولذلك قال رسول الله ﷺ ("لا يبقى على الأرض بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله الإسلام بعز عزيز، أو بذل ذليل")[4] .

قوله (يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ) (39) فالممالك لا تبقى على حال ، فكل مملكة يأتي زمان لتزول ، قال تعالى (وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ) (الأعراف 34) ، ثم يحل بعدها مملكة أخرى .. وهكذا ، حتى يأتي المسلمون ليرثون الأرض ومن عليها ، قال تعالى (وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ)(الأنبياء 105) .

---

[1]) التحرير والتنوير ج 12 ص 201
[2]) التسهيل لعلوم التنزيل ج1 ص 775
[3]) اللباب في علوم الكتاب ج9 ص 441
[4]) رواه ابن حبان ج15 ص 92 وصححه الألباني : السلسلة الصحيحة المجلدات ج1 ص 2 رقم 3

والمعنى في الآية عام ، يشمل كل قضاء الله وقدره ، فعن ابن عباس: (يدبر أمر السنة، فيمحو ما يشاء، إلا الشقاء والسعادة، والحياة والموت)[1] ، أي الآجال وما قدره الله في القدر الحولي ، أما القدر الأزلي فهو لا يتغير ، وعلى ذلك رتب العلماء القدر مراتب ، فقالوا أن القدر مرتب ترتيبا زمنيا بحسب أمور أربع وهي (العلم والكتابة والمشيئة والخلق) .

أولا : **العلم** : فعلم الله ليس له أول ، فهو صفة ذاتية لله

ثانيا : **الكتابة** ، وهو حادث ومتأخر عن العلم ، وكان قبل خلق السماوات والأرض ،كما قال رسول الله (كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة)[2]

ثالثا : **المشيئة والخلق** : فهما مقارنتان لوجود الفعل لا يتخلفان عنه ولا يتخلف عنهما، فإن المشيئة هي الإرادة الكونية التي يكون بها الخلق ،كما قال تعالى(إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)(يس: 82)، وقال سبحانه لمريم (كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) (آل عمران: 47)

وهناك وجه آخر لما تضمنته الآية من معاني ، ذكره ابن كثير في تفسير ، فهي تتضمن معنى "**الوحي**" سواء "آيات القرآن "كما قال قتادة كقوله (**مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا**) [البقرة 106]

أو نسخ الشرائع السابقة ،قال الشعراوي (**والآية تشمل نسخ رسالة برسالة أخرى**)[3] ، قال ابن عباس: (يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ) يقول: يبدل ما يشاء فينسخه، ويثبت ما يشاء فلا يبدله، (وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ) يقول: وجملة ذلك عنده في أم الكتاب، الناسخ، والمنسوخ، وما يبدل، وما يثبت كل ذلك في كتاب) [4].

كما يتضمن المعنى أن الله **يمحو المعجزة** التي جاء بها موسى ولا يكررها في زمن عيسى بن مريم ، ويمحو معجزة عيسى ولا يكررها في زمن محمد صلوات الله عليهم ،**أو يثبت بعضا من تلك الآيات والمعجزات** ، بما يتناسب مع الأقوام والأفهام ، وكل ذلك مقدر بقدر عنه سبحانه ،كذلك يمحو الله الشرائع ويثبت التوحيد ، فمهما تعددت الشرائع فإن التوحيد لا يطوله النسخ ، وذلك ردا على الذين كفروا لماذا أبطل محمد شريعتي اليهود والنصارى ؟ وذلك لتحريف البشر لهما .

كما تضمنت الآية معنى أن **تغيير الأحكام التكليفية ليس لأحد غير الله تعالى** ، قال تعالى (مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) (البقرة /106) ، أي أن الله تعالى يشرع للناس الأحكام بما يتناسب مع أحوالهم وظروفهم ، ولما كانت أحوال الناس تتفاوت بحسب المكان والزمان ، فإنه سبحانه يرفع عنهم الحرج وينسخ الآيات بما يجعل التشريع الناسخ خير للناس من المنسوخ ، فعن ابن عباس في هذه الآية قال (فَأَوَّلُ مَا نُسِخَ مِنْ الْقُرْآنِ الْقِبْلة)[5]، بما يعني نسخ شريعة اليهود والنصارى بالكلية ، ولذلك قال ابن عاشور (الآية تشمل نسخ

---

[1]) تفسير ابن كثير ج4 ص 469

[2] رواه مسلم

[3]) تفسير الشعراوي ج1 ص 4618

[4]) تفسير ابن كثير ج4 ص 471

[5]) رواه النسائي ج11 ص 221 رقم 3442 وصححه الألباني : صحيح وضعيف سنن النسائي ج8 ص 71

الأحكام التكليفية فهو يشرعها لمصالح ثم ينسخها لزوال أسباب شرعها ، وهو في حال شرعها يعلم أنها آيلة إلى أن تنسخ)[1] .

ويترتب على ما تقدم ، الإشارة إلى أن **هذا الكتاب القرآن الكريم هو معجزة هذه الأمة الخالدة** التي لا تتبدل ولا يطوله النسخ ، لأن الله تعالى جعل النبي محمد ﷺ خاتم النبيين ، وجعل القرآن الكريم آخر الكتب المنزلة من عنده ، ونسخ به ما سبقه من كتب ، وقد مات رسول الله ﷺ ولم يخلف بعده غير هذا الكتاب وسنته العملية، فلابد أن يكون هذا الكتاب هو المعجزة لهذا الدين حتى يبقى إلى يوم القيامة ، فكان من المحتم أن يتأمل الناس في هذا الكتاب ليدركوا إعجازه ، وأن هذا الإعجاز يكمن فيما انطوى عليه من أحكام وآداب وأخلاق حاكمة لحياة الناس بما يشعرها بالطمأنينة بذكر الله تعالى .

قوله (..وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ) (39) أي اللوح المحفوظ ، فكلا من الحكم الذي تم نسخه وما ثبت كل عند الله في اللوح المحفوظ ، فذلك كله مرجعه لله ، (الذي حوى كل المقادير فلا يدخله تبديل ولا تغيير كالموت والحياة والسعادة والشقاء)[2] ، ففي الحديث (رفعت الأقلام وجفت الصحف) أي لا تبديل لقدر الله الذي قدره في الأزل ، فكل ما يحصل معلوم مسبقا عند الله ، فهو الذي قدر أن ينسخ هذا ويثبت ذاك .

وانظر إلى التشابه بين قوله (وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ) وقوله (وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ) بما يشير إلى **وظيفة العلماء على مدار الزمان في حفظ الدين وتوريثه لغيرهم** ، وأنه مهما تبدلت الشرائع **فإنهم عندهم علم الكتاب** الذي لا يطوله النسخ ، **فالتوحيد ثابت في اللوح المحفوظ** وهو الذي دعت إليه الرسل جميعا ، وهو معلوم لكل من عنده علم بالكتاب ،كعبد الله بن سلام الذي كان حبرا من أحبار اليهود فلما سمع بالنبي ﷺ اختبره ثم آمن به وصدقه ، فعلام إذن استغرابهم أن الله بدل شريعة موسى وعيسى ونسخهما بشريعة محمد ﷺ ،ولماذا العناد ؟ طالما أن ما جاء به محمد ﷺ موافق للشرائع السابقة في أمر التوحيد الخالص لله ؟

قوله (وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ) (40) أراد الله تعالى ألا ينشغل نبيه ﷺ بقضية هؤلاء الكافرين من حيث **هداهم أو الانتقام** منهم ، ولينشغل بالبلاغ وحسب ، فليس عليه أن ينتظر عقابهم وحسابهم ، فأيهما أسبق حسابهم أو وفاتك ، فليس بأمر يجب الانشغال به ، فإن الله سوف يتم أمر هذا الدين في كلا الحالتين .

قال ابن عاشور الآية (وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ ..) عطف على جملة (يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ) باعتبار ما تفيده من إبهام مراد الله في آجال الوعيد ومواقيت إنزال الآيات ، فبينت هذه الجملة أن النبي ﷺ ليس مأمورا بالاشتغال بذلك ولا بترقبه ، وإنما هو مبلغ عن الله لعباده ، والله يعلم ما يحاسب به عباده سواء شهد النبي ﷺ ذلك أم لم يشهده ، وجعل

[1]) التحرير والتنوير ج12 ص 206
[2]) أيسر التفاسير للجزائري ج2 ص 254

التوفي كناية عن عدم رؤية حلول الوعيد بقرينة مقابلته بقوله "نُرِيَنَّكَ"، والمعنى (ما عليك إلا البلاغ سواء رأيت عذابهم أو لم تره)[1].

وفي ذلك تعليم لأمته **ألا يستعجلوا النصر** ، فقد يأتي النصر عقب الشهادة في سبيل الله ، بل إن حقيقة النصر أن تصل الدعوة للناس جميعا بجهود هؤلاء الشهداء ، فيصل البلاغ لهم رغم أنهم استشهدوا ، يقول النبي ﷺ **(بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً)**[2]، أي أن غاية الدعوة هي التبليغ وليس انتظار النتائج سواء انتظار النصر بإعلان إسلام الكافرين أو شفاء الصدور من ظلم الظالمين بالانتقام منهم .

فخباب بن الآرت لاقى من عذاب الكفار ما لاقى ، ولكنه وإذ عفاه الله ممن ظلمه نعى أخيه مصعب بن عمير الذي بعثه الله للمدينة المنورة ، وكان سببا في دخول الإسلام في المدينة كلها حتى تهيأت لاستقبال النبي ﷺ بعد هجرته من مكة ، ومضى أهل المدينة ينصرون نبيهم ﷺ في كل غزوة وسرية ، فعن خَبَّاب قَالَ هَاجَرْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ نُرِيدُ وَجْهَ اللَّهِ فَوَقَعَ أَجْرُنَا عَلَى اللَّهِ فَمِنَّا مَنْ مَضَى لَمْ يَأْخُذْ مِنْ أَجْرِهِ شَيْئًا مِنْهُمْ مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ قُتِلَ يَوْمَ أُحُدٍ وَتَرَكَ نَمِرَةً فَكُنَّا **إِذَا غَطَّيْنَا بِهَا رَأْسَهُ بَدَتْ رِجْلَاهُ وَإِذَا غَطَّيْنَا رِجْلَيْهِ بَدَا رَأْسُهُ** فَأَمَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ نُغَطِّيَ رَأْسَهُ وَنَجْعَلَ عَلَى رِجْلَيْهِ شَيْئًا مِنْ إِذْخِرٍ وَمِنَّا مَنْ أَيْنَعَتْ لَهُ ثَمَرَتُهُ فَهُوَ يَهْدِبُهَا)[3].

المسألة السادسة : الفتح الإسلامي هو آية الله يسوقها للمجادلين

قوله (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ) (41) **المخاطب بالرؤية هم المجادلون** الذي اقترحوا الآيات وقد أشار إليهم أول السورة ، فتخاطبهم بزوال ملكهم ونقصان أرضهم من تحت أيديهم ، **فنقصان الأرض كناية عن زوال ملك الذين كفروا** ، وانحسار أراضيهم لتؤول ملكيتها إلى من يورثهم الله تعالى إياها من عباده الصالحين)[4]، كما قال ابن عباس (أو لم يروا أنا نفتح لمحمد الأرض بعد الأرض؟)[5] قال ابن كثير (والقول بظهور الإسلام على الشرك قرية بعد قرية هو الأولى) وهو اختيار ابن جرير كذلك [6]، وذلك كقوله **(وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا** وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ) (الأعراف137) .

وعَنْ ثَوْبَانَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ **(إِنَّ اللَّهَ زَوَى لِي الْأَرْضَ فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا وَأُعْطِيتُ الْكَنْزَيْنِ الْأَحْمَرَ وَالْأَبْيَضَ)**[7] ، قوله (وأعطيت الكنزين الأحمر والأبيض) أي الذهب والفضة [8]، والمراد : كنزا كسرى وقيصر ملكي العراق والشام بيضتهم أي جماعتهم وأصلهم[9] ، قال ابن الأثير (فالأحْمَرُ مُلك الشام

---

[1]) التحرير والتنوير ج12 ص 206
[2]) رواه البخاري ج11 ص 277 رقم 3202 ، ورواه الترمذي ج9 ص 277 رقم 2593
[3]) رواه البخاري ج12 ص 286 رقم 3608
4) انظر في هذا المعنى التفسير الميسر ج2 ص4 مجمع الملك فهد لطباعة المصحف
[5]) تفسير ابن كثير ج4 ص 472
[6]) تفسير ابن كثير ج4 ص 472
[7]) رواه مسلم ج14 ص 68 رقم 5144
[8]) الزمخشري : الفائق في غريب الحديث ج1 ص 317
[9]) الديباج على مسلم ج6 ص 219

والأبيضُ مُلك فارس)[1] ، (والذَّهَب كُنوز الرُّوم لأنه الغالب على نُقودهم والفِضَّة كنوز الأكاسِرة لأنها الغالب على نُقُودهم)[2]، قال النووي في قوله (زوى) معناه (جمع) .

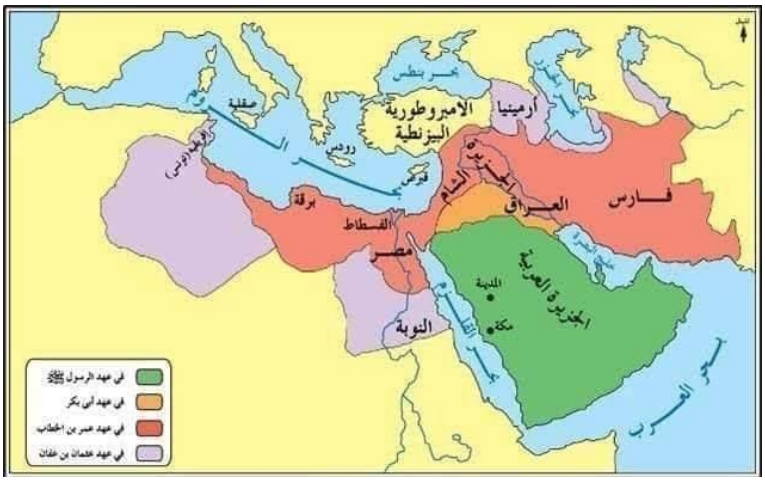

قال النووي (وهذا الحديث فيه **معجزات ظاهرة** وقد وقعت كلها بحمد الله كما أخبر به ﷺ ، وفيه إشارة إلى أن ملك هذه الأمة يكون معظم امتداده فى جهتى المشرق والمغرب وهكذا وقع، وأما فى جهتى الجنوب والشمال فقليل بالنسبة إلى المشرق والمغرب) [3] ،وفي رواية قال (**ولتنفقن كنوزهما في سبيل** الله) وقد تحقق ذلك وأنفقت في سبيل الله على يد الفاروق رضي الله عنه وأرضاه)[4].

قال ابن عاشور (**ولم يقف ظهور الإسلام عند فتح الممالك** والغلب على الملوك والجبابرة، بل تجاوز ذلك إلى **التغلغل في نفوس الأمم المختلفة** فتقلدوه دينا وانبثت آدابه وأخلاقه فيهم فأصلحت عوائدهم ونظمهم المدنية المختلفة التي كانوا عليها فأصبحوا على حضارة متماثلة متناسقة وأوجدوا حضارة جديدة سالمة من الرعونة وتفشت لغة القرآن فتخاطبت بها الأمم المختلفة الألسن وتعارفت بواسطتها، ونبغت فيهم فطاحل من علماء الدين وعلماء العربية وأئمة الأدب العربي وفحول الشعراء ومشاهير الملوك الذين نشروا الإسلام في الممالك بفتوحهم)[5].

وقوله (..وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ..) (41) يعني ليس أحد يُتعقب حكمه فيرد ، كما يتعقب أهل الدنيا بعضهم حكم بعض فيرده)[6]، قال الألوسي (وقد حكم لك ولأتباعك بالعز والإقبال ، وحكم على أعدائك ومخالفيك بالقهر والإذلال ، حسبما يشاهده ذوو الأبصار من المخائل والآثار)[7].

---

[1]) النهاية في غريب الأثر ج1 ص 451
[2]) النهاية في غريب الأثر ج1 ص 1044
[3]) شرح النووي على مسلم ج18 ص 13
[4]) عبد المحسن العباد : شرح سنن أبي داود ج23 ص 474
[5]) التحرير والتنوير ج25 ص 92
[6]) الدر المنثور ج6 ص 28
[7]) تفسير الألوسي ج9 ص 300

قال القشيري (لا مُعَقِّبَ لِحُكمِه ، ولا ناقِضَ لما أبرمه ، ولا مُبْرِمَ لِمَا نَقَضَه ، ولا قابل لِمَنْ رَدَّه ، ولا رادَّ لِمَنْ قَبِلَه ولا مُعِزَّ لِمَنْ أهانه ، ولا مُذِلَّ لمن أعَزَّه)[1].

وقوله (..وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ)(41) يعني أنه لن يطول ملك هؤلاء الكافرين أمام المؤمنين المصدقين بدعوة الحق ، فسوف يحاسب الله هؤلاء الظالمين على ظلمهم ، ويعز المؤمنين ، **وحين يحصل النصر يظن الظالم أن ملكه مضى سريعا** ، وأنه جوزي على ظلمه قبل أن يلحق برد المظالم لأهلها ، كما **يشعر أهل الحق أن ما مضي من جهادهم قد مضى سريعا ، وقد جوزوا بالإحسان إحسانا** .

قوله (وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ) (42) هم **يمكرون لضعف حجتهم ، وعجزهم** أمام قوة الحق ، فيحتالون بالمكر والخديعة للتخلص من الدعوة الإسلامية والدعاة إلى الله **بإنكار نبوته وتشويه سمعته واتهامه بالكذب** حتى لا يصدقه الناس ، بل وأكثر من ذلك **بالتدبير لقتله أو نفيه** ، قال تعالى (وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا **لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ** وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ) (الأنفال/30) .

قوله (..فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا..) (42) أي وإزاء مكر هؤلاء يُطمئن الله نبيه بأن الله يمكر من ورائهم ، والمكر كله لا يكون له فاعلية إلا بما يمكر به الله سبحانه ، فلا عبرة بمكرهم ، ولا تأثير له ، لأنه معلوم لله – تعالى – وتحت قدرته

وقوله (..يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ..) (42) بمنزلة تعليل لجملة "فَلِلَّهِ المكر جَمِيعاً" ، فالذي يملك المعلومات قادر على أن يحبك المكائد ، أى أنه (هو – سبحانه – له المكر جميعا ، لأنه **لا تخفى عليه خافية** من أحوال كل نفس ، وسيجازيها بما تستحقه من خير أو شر)[2] ، قال الشربيني (ذلك أن الله سبحانه هو **الخالق لجميع أعمال العباد، فالمكر لا يضرّ إلا بإذنه ولا يؤثر إلا بتقديره**، مما تضمن معنى الأمان له ﷺ من مكرهم)[3].

فلذلك كان النبي ﷺ دائم الاستعانة بالله تعالى والدعاء أن يكفيه مكرهم ، فعن بن عباس قال : سمعت النبي ﷺ يدعو بهذا (**رب أعني ولا تعن علي وانصرني ولا تنصر علي وامكر لي ولا تمكر علي ويسر لي الهدى وانصرني على من بغى علي** رب اجعلني شكارا لك ذكارا راهبا لك مطواعا لك مخبتا لك أواها منيبا تقبل توبتي واغسل حوبتي وأجب دعوتي وثبت حجتي واهد قلبي وسدد لساني واسلل سخيمة قلبي)[4].

---

[1]) تفسير القشيري ج4 ص 21
[2]) الوسيط لسيد طنطاوي ج1 ص 2398
[3]) الشربيني : تفسير السراج المنير ج1 ص 1791
[4]) رواه البخاري في الأدب المفرد ج1 ص 232 رقم 665 وصححه الألباني : صحيح الأدب المفرد ج 1ص 250رقم 665/517

قوله (..وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ) (42) يثور التساؤل عن فائدة علمهم بعدما آل ملكهم لغيرهم ، والإجابة أن **هذا العلم بمثابة حجة عليهم** ، لأنه بعدما علموا ذلك أيقنوا صدق الله في وعده ،ويترتب بالتالي على ذلك **وجوب اتباعهم للمؤمنين** ، وقد ظهرت الآية المعجزة بتمكين الله للمؤمنين ونصرتهم على الكافرين .

وأول من يعلم من الكفار ذلك هم أسراهم ، فعَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (**عَجِبَ اللَّهُ مِنْ قَوْمٍ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ فِي السَّلَاسِلِ**)[1] والمقصود بهم الأسارى الذين يؤسرون وهم كفار، فإن ذلك الأسر من أسباب إسلامهم ودخولهم في الإسلام، فهم يقادون إلى الجنة في السلاسل، يعني أنهم يجرون إلى شيء لا يريدونه وهو خير لهم، فيئول بهم الأمر إلى أن يسلموا ويكونوا من أهل الجنة وقد كانوا كارهين في أول الأمر؛ لأن أسرهم مكروه لهم، ولكنه يترتب على أسرهم وبقائهم وعدم قتلهم أنهم يشاهدون أحوال المسلمين وأعمال المسلمين وأحكام الإسلام، فيدخلون في الإسلام، فيكونون من أهل الجنة، ويسلمون من أن يكونوا من أهل النار الذين هم الكفار الذين لا سبيل لهم إلى الجنة)[2].

قال بن الجوزي معناه أنهم أسروا وقيدوا **فلما عرفوا صحة الإسلام دخلوا طوعا** فدخلوا الجنة فكان الإكراه على الأسر والتقييد هو السبب الأول وكأنه أطلق على الإكراه التسلسل ولما كان هو السبب في دخول الجنة أقام المسبب مقام السبب)[3]

---

[1])رواه البخاري ج10 ص 200 رقم 2788
[2]) شرح سنن أبي داود لعبد المحسن العباد ج14 ص 237
[3]) فتح الباري ج6 ص 145

خاتمة الرعد

إعجاز أهل الجدل بشهادة الله وقد ضم معها شهادة العلماء

قال تعالى (وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ (43)

قوله (وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا..) (43) هذا النفي الذي يتفوهون به ما هو إلا مكر من الذين كفروا ، ينفون عن النبي ﷺ الرسالة ، رغم أنهم يصدقونه ، وكانوا يلقبونه قبل البعثة بالصادق الأمين ، لكنهم يكذبونه هذه المرة مكرا منهم حتى لا يلزمهم بكتاب أو عبادة الله ، وينهاهم عما ألفوه من عادات الجاهلية ، والاسترسال في شهواتهم دون ضابط ، والإغارة على بعضهم البعض ، فالقوي يسحق الضعيف وفقا لقوانينهم التي ما أنزل الله بها من سلطان ، ولرفضهم أن يضعهم النبي ﷺ هم وأصحابه بلال وصهيب في مكانة واحدة على قدم المساواة ، وهم قد قسموا الناس إلى سادة وعبيد .

قوله (..قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ) (43) أي أن الله شهيد على صدق الرسول وكفى به شهيدا ، وقد ضم الله لشهادته شهادة من عنده علم الكتاب ، فالعلماء هم ورثة الأنبياء ، وشهادتهم تنير الطريق لغيرهم .

أما شهادة الله فهي موجودة في كتابه فيما أوحي به لعبده محمد ﷺ قال ابن القيم (فاستشهد على رسالته بشهادة الله له ، ولا بد أن تعلم هذه الشهادة وتقوم بها الحجة على المكذبين له ، وكذلك قوله "**قل أي شيء أكبر شهادة قل الله شهيد بيني وبينكم**" ...فهذا كله شهادة منه لرسوله قد أظهرها وبينها ، وبين صحتها غاية البيان بحيث قطع العذر بينه وبين عباده وأقام الحجة عليهم ، فكونه سبحانه شاهدا لرسوله معلوم بسائر أنواع الأدلة عقليها ونقليها وفطريها وضروريها ونظريها)[1].

قوله (..وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ) يعني أن الله قد **ضم لشهادته سبحانه شهادة العلماء ، وخص منهم الذين عندهم علم بالكتاب ، وهو القرآن الكريم** ، لأنه يظهرون معانيه للناس ويفسرونه فيهتدون به ، هذا بوجه عام ، قال السدي والكلبي : (يعني علماء المؤمنين كلهم)[2] ، قال الثعلبي (فقرّب الله تعالى شهادة العلماء بشهادته؛ لأن العلم صفة الله العليا ونعمته العظمى ، والعلماء أعلام الإسلام والسابقون الى دار السلام وسرج الامكنة وحجج الأزمنة)[3].

---

[1]) التفسير القيم لابن القيم ج1 ص 306
[2]) النيسابوري : الكشف والبيان ج3 ص 33 ، تفسير البغوي ج2 ص 18 ، الألوسي : روح المعاني ج3 ص 105
[3]) تفسير الثعلبي ج1 ص 398

والمقصود في هذا السياق على وجه الخصوص (**المؤمنون من أهل الكتاب** ، أي اليهود والنصارى)[1] أي الذي آمنوا بعيسى عليه السلام نبيا ، وكذلك أهل التوراة كعبد الله بن سلان ، قال الشنقيطي (المراد به أهل العلم بالتوراة والإنجيل، ويدل له قوله تعالى (**شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ**) [آل عمران/18] ، وهم مثل ورقة بن نوفل وعبد الله بن سلام.

قال ابن كثير (والصحيح في هذا: أن "**وَمَنْ عِنْدَهُ**" **اسم جنس يشمل علماء أهل الكتاب** الذين يجدون صفة محمد ﷺ ونعته في كتبهم المتقدمة، من بشارات الأنبياء به، كما قال تعالى: (وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ **فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ** وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ **الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ**) [الأعراف: 156، 157] وقال تعالى: (أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ **عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ**) [الشعراء : 197] وأمثال ذلك مما فيه الإخبار عن علماء بني إسرائيل: أنهم يعلمون ذلك من كتبهم المنزلة ، وقد ورد في حديث الأحبار، عن **عبد الله بن سلام بأنه أسلم بمكة قبل الهجرة**)[2].

ورغم أن المعنى مخصوص بعلماء أهل الكتاب في زمن النبي ﷺ ، إلا أنه لا يقتصر عليهم فحسب ، لأن **المراد هو سؤالهم في أي زمان ، والاستشهاد بشهادتهم وقولهم في كل مكان وزمان** ، كما في قوله (فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) (النحل43)

قال ابن القيم (فإن قيل فلم لم يذكر الله سبحانه شهادة رسله مع الملائكة فيقول شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة والرسل ، وهم أعظم شهادة من أولي العلم ، قيل في ذلك عدة فوائد إحداها أن **أولي العلم أعم من الرسل والأنبياء فيدخلون هم وأتباعهم** ، وثانيها أن في ذكر أولي العلم في هذه الشهادة وتعليقها بهم ما يدل على أنها من موجبات العلم ومقتضياته ، وأن من كان من أولي العلم فإنه يشهد)[3] ، أي أن ذلك على إطلاقه .

بهذا استبان **مكانة أهل العلم ، وأنهم أضحوا علامة على هذا الدين** ، وآية من آيات الله تعالى يهتدي بهم الناس ، ولذلك قال رسول الله ﷺ (وَإِنَّ **فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ** إِنَّ الْعُلَمَاءَ هُمْ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا إِنَّمَا وَرَّثُوا الْعِلْمَ فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ)[4]

وفي ذلك بتكيت للذين يقترحون الآيات على رسلهم ، ألا يعتبرون بتلك الآية وهي شهادة العلماء ، وعلى وجه الخصوص شهادة علماء بني إسرائيل في زمن النبي ﷺ على صدق نبوة النبي محمد ﷺ ، فالعرب كانوا يثقون في شهادتهم ، كما في قوله تعالى (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ **وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ** فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ

---

[1]) أيسر التفاسير للجزائري ج2 ص 255
[2]) تفسير ابن كثير ج4 ص 474
[3]) التفسير القيم لابن القيم ج1 ص 306
[4]) رواه ابن ماجة ج1 ص 259 رقم 219 وصححه الألباني : صحيح سنن ابن ماجة ج1 ص 43 رقم 182

إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) (الأحقاف10)، فعن الضحاك في قوله عز وجل (وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله) قال : الشاهد عبد الله بن سلام وكان من الأخيار من علماء بني إسرائيل[1] .

فعن أَنس أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ سَلَامٍ بَلَغَهُ مَقْدَمُ النَّبِيِّ ﷺ الْمَدِينَةَ فَأَتَاهُ يَسْأَلُهُ عَنْ أَشْيَاءَ فَقَالَ إِنِّي سَائِلُكَ عَنْ ثَلَاثٍ لَا يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا نَبِيٌّ :-

- مَا أَوَّلُ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ
- وَمَا أَوَّلُ طَعَامٍ يَأْكُلُهُ أَهْلُ الْجَنَّةِ
- وَمَا بَالُ الْوَلَدِ يَنْزِعُ إِلَى أَبِيهِ أَوْ إِلَى أُمِّهِ

قَالَ أَخْبَرَنِي بِهِ جِبْرِيلُ آنِفًا قَالَ ابْنُ سَلَامٍ ذَاكَ عَدُوُّ الْيَهُودِ مِنْ الْمَلَائِكَةِ

- قَالَ أَمَّا أَوَّلُ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ فَنَارٌ تَحْشُرُهُمْ مِنْ الْمَشْرِقِ إِلَى الْمَغْرِبِ ،
- وَأَمَّا أَوَّلُ طَعَامٍ يَأْكُلُهُ أَهْلُ الْجَنَّةِ فَزِيَادَةُ كَبِدِ الْحُوتِ
- وَأَمَّا الْوَلَدُ فَإِذَا سَبَقَ مَاءُ الرَّجُلِ مَاءَ الْمَرْأَةِ نَزَعَ الْوَلَدَ ، وَإِذَا سَبَقَ مَاءُ الْمَرْأَةِ مَاءَ الرَّجُلِ نَزَعَتْ الْوَلَدَ

قَالَ أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ

قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ الْيَهُودَ قَوْمٌ بُهُتٌ فَاسْأَلْهُمْ عَنِّي قَبْلَ أَنْ يَعْلَمُوا بِإِسْلَامِي

فَجَاءَتْ الْيَهُودُ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ أَيُّ رَجُلٍ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ فِيكُمْ قَالُوا خَيْرُنَا وَابْنُ خَيْرِنَا وَأَفْضَلُنَا وَابْنُ أَفْضَلِنَا

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَسْلَمَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ

قَالُوا أَعَاذَهُ اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ فَأَعَادَ عَلَيْهِمْ فَقَالُوا مِثْلَ ذَلِكَ

فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ عَبْدُ اللَّهِ فَقَالَ أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ

قَالُوا شَرُّنَا وَابْنُ شَرِّنَا وَتَنَقَّصُوهُ قَالَ هَذَا كُنْتُ أَخَافُ يَا رَسُولَ اللَّهِ)[2].

وقد حسن إسلام حبر اليهود "**عبد الله بن سلام** " ، وصَدَّق النبي ﷺ في كل ما كذبته فيه اليهود ، وقد أثبت عبد الله بن سلام بالأدلة أن القرآن يُصدّق التورة والأنجيل ، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ الْيَهُودَ جَاءُوا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ بِرَجُلٍ مِنْهُمْ وَامْرَأَةٍ قَدْ زَنَيَا فَقَالَ لَهُمْ كَيْفَ تَفْعَلُونَ بِمَنْ زَنَى مِنْكُمْ ؟

قَالُوا نُحَمِّمُهُمَا وَنَضْرِبُهُمَا

فَقَالَ لَا تَجِدُونَ فِي التَّوْرَاةِ الرَّجْمَ؟

فَقَالُوا لَا نَجِدُ فِيهَا شَيْئًا .

فَقَالَ لَهُمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ كَذَبْتُمْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ

[1]) رواه الحاكم في المستدرك على الصحيحين ج3 ص 468 رقم 5754
[2]) رواه البخاري ج12 ص 328 رقم 3645

فَوَضَعَ مِدْرَاسُهَا الَّذِي يُدَرِّسُهَا مِنْهُمْ كَفَّهُ عَلَى آيَةِ الرَّجْمِ فَطَفِقَ يَقْرَأُ مَا دُونَ يَدِهِ وَمَا وَرَاءَهَا وَلَا يَقْرَأُ آيَةَ الرَّجْمِ فَنَزَعَ يَدَهُ عَنْ آيَةِ الرَّجْمِ

فَقَالَ مَا هَذِهِ ؟ فَلَمَّا رَأَوْا ذَلِكَ قَالُوا هِيَ آيَةُ الرَّجْمِ ، فَأَمَرَ بِهِمَا فَرُجِمَا قَرِيبًا مِنْ حَيْثُ مَوْضِعُ الْجَنَائِزِ عِنْدَ الْمَسْجِدِ فَرَأَيْتُ صَاحِبَهَا يَحْنِي عَلَيْهَا يَقِيهَا الْحِجَارَةَ)[1]

بذلك اختتمت السورة **بالتركيز على شهادة أولي العلم** ، لأنهم باعتبارهم **ورثة الأنبياء هم الحجة على غيرهم** ، فهم خير من أي آية يطلبها الكافرون المكثرون من الاقتراحات والجدل ، ف**العلماء آية من آيات الله لأنهم يخشونه ولا يخشون أحدا إلا الله** ، وهم الذين يعرفون صفات الله وأسمائه ويعظمونه ، ويدركون آياته ونعمه ، ويعرفونها للناس ، ويتفكرون في خلق السماوات والأرض ودلائل قدرته سبحانه ، **فالعلم عن الله لا يتحصل إلا ببيان العلماء له** ، واستظهار قدرته واستقراء آياته ، ولذلك يقول النبي ﷺ (إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنْ الْعِبَادِ وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ)[2]

فسلوكيات العلماء وأخلاقهم حجة على الناس ، فهم باعتبارهم ورثة الأنبياء يقتدون بسنة النبي ﷺ ، ولذلك كان مذهب الإمام مالك يعتمد على عمل أهل المدينة لمشاهدتهم للسنة الفعلية لرسول الله ، وهو الأمر الذي يلقي بعبء الدعوة عليهم بعد النبي ﷺ ، **فلينتبه كل صاحب دعوة حتى لا تخدش صورته أمام الناس** ، فيقتدوا بالصورة مخدوشة ، وينحرفوا عن المنهج ، ولا يقتدوا بالرسول ﷺ ، ولذلك يقول النبي ﷺ في حديث قبض العلماء (..حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُءُوسًا جُهَّالًا فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا)[3].

ولذلك قيل بأن **فعل رجل في ألف رجل خير من قول ألف رجل لرجل** ، ومعناها أن الأفعال أقوى تأثيراً من الكلام، فلو أن رجلا قام بفعل موقف أخلاقي يدل على الأمانة ، فإن هذا الموقف أشد تأثيرا على الناس من ألف محاضرة يلقيها عالم عن الأمانة ...وهكذا ، ولذلك **كان العالم آية من آيات الله على صحة هذا الدين** وصدق رسوله ﷺ **تضاهي جميع آيات الله التي في هذا الكون من رعد وبرق ومطر ونبات** .

---

[1]) رواه البخاري ج14 ص 26 رقم 4190
[2]) رواه البخاري ج1 ص 176 رقم 98
[3]) رواه البخاري ج1 ص 176 رقم 98

فهرست الموضوعات

تمهيد : - 1
محتوى الموضوعات 4
مقدمة سورة الرعد 5
استدراك الله على من لا يؤمنون به وآياته من حولهم 5
المحور الأول 20
العجب من منكري البعث – أهل الجدل– المستعجلين بالسيئة قبل الحسنة 20
المحور الثاني 24
الأدلة على تدبير الله الكبير المتعال لشئون خلقه وحفظهم 24
المحور الثالث 32
دلالات "البرق والرعد والظل وماء المطر" على الله الواحد القهار 32
المحور الرابع 48
الحسنى لأهل الاستجابة وسوء العاقبة لناقضي الميثاق المفسدين في الأرض 48
المحور الخامس 64
الرسول جاء بقرآن هو منهج حياة للأمم ، وليس بآلة تخرج عاداتهم الطبيعية 64
المحور السادس 75
الحكم العربي 75
خاتمة الرعد 91
إعجاز أهل الجدل بشهادة الله وقد ضم معها شهادة العلماء 91